تجديد الفكر الإسلامي

على مشارف قرن جديد

قراءة في تجربة

الشيخ محمد الغزالي

محمد يونس





الطبعة الأولى

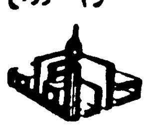
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع ٩٩/٢٨٥٠

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-5502-50-0

ملتزم التوزيع



دار القلم للنشر والتوزيع بالقاهرة

٣٦ ش قصر العينى - الدور الثانى - شقة ٤

تليفـــون وفاكـــس : ٣٥٥١١٠٥

ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهــرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم المستشار طارق البشري

يمثل الشيخ محمد الغزالي تحدياً للمؤرخين المحدثين للفكر السياسي الاجتماعي المعاصر ، سواء في مصر أو في بلاد العرب بعامة ، ونحن نتساءل هل يمكنهم أن يتجاهلوه كما تجاهلوا غيره من مشربه الفكري ، أم سيضطرون إلى الإقرار بوجوده وتحليل أعماله ، وهنا سيشدهم الشيخ ويطرح أمامهم كل سوابقه وتوابعه من مشربه الفكري الإسلامي ، لننتظر ونرى .

إن المؤرخين المحدثين للفكر المعاصر – السياسي والاجتماعي – اعتادوا أن يسقطوا من حسابهم المفكرين الإسلاميين في هذه المجالات – من بعد محمد عبده تقريباً ، أي من أوائل القرن العشرين . إننا نراهم يتابعون حسن العطار مثلاً في بداية القرن التاسع عشر ثم رفاعة رافع والأفغاني حتى محمد عبده ، وقد يجيز بعضهم لنفسه أن يدخل رشيد رضا ، ثم بعد ذلك يقصرون متابعاتهم على الفريق الذي يُدخل أحمد لطفي السيد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ومحمود عباس العقاد ...

ولا نكاد نجد في شجرة الفكر السياسي الاجتماعي التي يرسمونها ، إشارة مناسبة للشيخ محمد مصطفى المراغي أو الشيخ محمود شلتوت أو الشيخ حسن البنا ، ولا نجد أي ظل لأثر لأمثال الشيوخ محمد شاكر ويوسف الدجوي والدكتور محمد عبد الله دراز . ولا نجد وجوداً أي أدنى معرفة لأمثال طنطاوي جوهري ومحمد فريد وجدي ... إلخ .

نحن مثلاً نجد لديهم لويس عوض ولا نجد محمود شاكر ، ونجد طه حسين ولا نجد مصطفى صادق الرافعي ونجد علي عبد الرازق ولا نجد محمد بخيت المطيعي والخضر حسين ، ونحن هنا لا نتكلم عن رأي المؤرخ أو الباحث في أي من هؤلاء ، إنما نتكلم عن محض اعترافه بوجودهم وأن هذا الذي يقولونه أو يكتبونه إنما هو " فكر " أعلى الباحث من شأنه أم شد عليه النكير ، اعتبره مسوغاً للتقدم أو جاذباً للتخلف فالأمر ليس أمر التحسين والتقبيح إنما هو أمر الاعتراف بالوجود ، والإقرار بأن الفكر المصري أو العربي يضم هؤلاء وهؤلاء .

إن من يبحث عن تبرير لهذا الإسقاط والتجاهل لمدرسة فكرية بأسرها وبكاملها ، قد يجد عوناً له على تسويغ الاستبعاد ، بأن يحمل هؤلاء جميعاً إلى غير مجال الفكر السياسي الاجتماعي ، فمن وجد له افتاء ألحقه كله بالفقه والقانون مثل الشيخ شلتوت ومن كانت له تفاسير أُلحق برمته بعلوم تفسير القرآن مثل المراغي ، ومن لم يفلح معه هذه الوسيلة نعت بأنه داعية ، وكأن الدعوة بعيدة عن مجال الفكر ومدارسه ، وذلك مثل حسن البنا ، ومن غلب على إنتاجه الفكري كتابة المقالات جحد إنتاجه ودوره مثل محمد شاكر ويوسف الدجوي . ممن كانت مقالاتهم تملء صحافة العشرينيات ، ومن كانت له كتب ونظّمَ جماعات ، جرى التركيز على نشاطه الحركي دون نتاجه الفكري ،مثل الشيخ محمود خطاب السبكي مؤسس الجمعية الشرعية.

أياً ما كان الأمر ، فنحن هنا أمام الشيخ محمد الغزالي . وله ثمانية وخمسون كتاباً أصدرها على مدى خمسين عاماً من حياته النافعة للإسلام وأمة المسلمين وللوطن المصري وللعروبة ، والغالبية الغالبة منها ، أو تكاد تكون كلها في الفكر السياسي الاجتماعي ، وفي ذات القضايا والمسائل التي أثارها وتكلم فيها أبناء المشرب الفكري المقابل ، عن العدالة الاجتماعية والعروبة والاستبداد والشيوعية والقومية وحقوق الإنسان . ولذلك وجبت إثارة التساؤل ، هل يمكن لمؤرخ محدث أن يتجاهل موقع محمد الغزالي في مجال التأريخ للفكر السياسي الاجتماعي المعاصر ؟

لقد عاش الشيخ الغزالي متفاعلاً مع عصره وامتزجت دنياه مع دينه أيما امتزاج ، حتى أننا لنكاد نؤرخ كتبه بعناوينها ، وبموضوعها نتعرف عليها متى كتبت ، لأنه عاش عصره واندمج فيه ، عاشه وتفاعل معه وتعامل بعقل ينتمي إلى الثقافة الإسلامية وبقلب مفعم بدفء الإيمان . ولذلك لا يمكن تجاهله بأي من الدعاوي والأعذار .

ومن جهة أخرى ، فإنه ما أن يتعامل الباحث مع فكر الشيخ ، حتى تتزاحم عليه شعب الفكر الإسلامي في مجالاته العديدة ، سواء ما سبق الغزالي من هذا الفكر بمذاهبه وشعبه وتياراته ، أو ما عاصره من مدارس وتوجهات واجتهادات .

وعلى الجملة فإن الموقع التاريخي لفكر الغزالي يجعله يقف على ملتقى الأبحر ، أو بعبارة أدق هو يقف على مجمع البحرين ، بحر المحافظة على الأصول والزود عن الثوابت ، وبحر

التجديد الفكري والفقهي . ولكي نفهم جيداً ماذا تعني حياة شيخنا الغزالي على مدى النصف الثاني من القرن العشرين ، علينا أن نتفهم أوضاع ما آل إليه الواقع الإسلامي على مدى القرن السابق من منتصف القرن التاسع عشر .

ولسنا في مجال التفصيل لهذا الشأن ، ولكن يمكن إيجاز المقال بأن الوفود الفكري الغربي الأجنبي الذي طرق أبواب بلادنا ثم تسرب إليها ثم اقتحم معاقلها الفكرية اقتحاماً مع حركات الاحتلال العسكري الأوربي وحركات الاستعمار السياسي والاقتصادي ، هذا الوفود الغربي قد جعل هدفه وكليته زعزعة المكون الإسلامي في العقول والقلوب وخلخلة الثوابت الدينية، ومن هنا هبت المدرسة المحافظة في الفقه والفكر تزود عن حياض العقيدة وتعيد إليها الرسوخ واليقين ، وقام بهذه المهمة أجلّ شيوخ الأزهر في مصر في نهايات القرن الماضي وفواتيح هذا القرن الذي ينبئ بالانتهاء .

وفي مواجهة هذه المدرسة المحافظة ، ظهرت دعوة التجديد الفقهي والفكري تحاول أن تفتق من الوعي الإسلامي ما يتلاءم مع متغيرات الواقع ومستحدثاته . وكانت كلا الدعوتين لازمة ونافعة ، ولكن كلا من هذين التيارين سار على دربه بما أقام نوعاً من التباين والتنافر بين الوظيفتين ، ومما قام به نوع من المحاربة أحياناً بين تيار المحافظة وتيار التجديد ، وبالأقل فقد حلت الغربة بينهما وسوء الظن بدلاً من الألفة والتعاون ، وفعلت ردود الفعل الأفاعيل بينهما . ثم بدأ التقارب الحذر وعلى مدى طويل وبحركة بطيئة بدأ كل من الجانبين يتفهم وجهة الآخر ، في العشرينيات ثم الثلاثينيات ثم الأربعينيات .

ثم جاء جيل الشيخ الغزالي ليقف على مجمع البحرين ، وكان شيخنا الجليل زهرة هذا الجمع وثمرته الطيبة . لذلك فنحن لا نستطيع أن نفهم جيداً الدور الحقيقي الذي قام به الشيخ إلا إذا وعينا بالمتابعة التاريخية حركة كل من تياري المحافظة والتجديد منذ منتصف القرن التاسع عشر . وبهذا الوعي التاريخي نتابع دور الغزالي على مدار سنواته العملية الخمسين ، وهو يخوض معركتين ، معركة التجديد ضد الجمود والسطحية والتخلف الفكري، ومعركة المحافظة دفاعاً عن ثوابت الدين والعقيدة ضد نزعات التغريب وضد دعاوي التفكيك والانحلال العقيدي . وحياة الشيخ كلها تتراءى في هاتين الساحتين ، جولة هنا وجولة هناك .

لذلك فرغم أن الشيخ كان في مقدمة الدعاة للتجديد الفقهي والفكري ، ومن أذكى من مارس التجديد فعلاً في الفقه والفكر بمنهج رصين وبمنطق أصيل ، ورغم ما فتح من مغاليق وما طوع من جمادات الفكر الموروث ، ورغم جرأته وشجاعته ، رغم كل ذلك لا نجد أثر للترحيب بفكره وعمله لدى تيار المتغربين ، لأنه ما من غلاتهم إلا في صورة طعنة من رماح الشيخ صوبها وهو يدافع عن ثوابت عقيدته وأصول إسلامه .

ولو استطردت لكتبت وكتبت ، فما أطيب ذكر الغزالي عندي ، طاب حياً وميتاً ، وما أجل كتاباته وما أعزب مرحه وغضبه . وقد كان عزب الضحك عنيف الغضب ، باكياً من خشية ا لله .

وهذا الكتاب لأخي محمد يونس يتحدث عن الشيخ الغزالي بوضعه مجدداً في الفكر الإسلامي ، ويحيط بعدد من الجوانب درسها بصدق وصور بها إلى أي مدى كان شيخنا يعالج قضايا التجديد في الفقه والفكر بعامة ويتوغل في ذلك إلى دراسة مصادر الشريعة وأصول أحكامها ، وهو في كل ذلك ملتزم بحدود الفقه وأصول الشرع ثابت اليقين عميق الجذور .

وهذا الأستاذ محمد يونس في دراسته يوضح إلى أي مدى امتزجت لدى الشيخ علوم الدين وعلوم الدنيا فصارت كلها نسيجاً متماسكاً ، أو صارت ماءً واحداً . وهذا المزج بين علوم الدين وعلوم الدنيا يستعيد به الشيخ منهج مفكرينا القدامى في كل ما أنتجوه من علوم وفنون في مجالات فقه المعاملات والعبادات وفي مجالات التاريخ والسياسة والاجتماع.

أهنئ الأستاذ محمد يونس على اختياره لهذا الموضوع وعلى توفيقه الحميد في معالجته . نفع ا لله به وبعمله .

والحمد لله

طارق البشري

مقدمة المؤلف :

الحمد لله الذى يبعث لأمتنا على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها ، وهذا دلالة على خلود رسالة الإسلام وصلاحيتها لكل زمان ومكان .. فقد استمرت حركة التجديد الإسلامى منذ القرن الهجرى الأول وحتى اليوم ، وقد تباينت صور التجديد وأشكاله على مدى تاريخنا ، فقد يكون المجدد فردًا أو مجموعة أو حركة فكرية أو مدرسة تسهم فيها أجيال متعاقبة .

وفى هذا العصر يُعتبر الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - أحد أعمدة التجديد الإسلامى الرئيسية ، بل إنه يمثل الجيل الخامس من أجيال مدرسة تجديد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث .

وللشيخ الغزالى إسهامات جليلة وبصمات جلية على مسيرة الفكر الإسلامى فبجانب أنه داعية امتلك ناصية الخطابة ، وانفعل بروح الإسلام الدافقة ، فهو أيضًا عالم جليل له اجتهادات وترجيحات وآراء فكرية ، جعلته يتصدى للعديد من القضايا الإسلامية المعاصرة برؤية حضارية تضع نصب عينيها مقاصد الإسلام الكبرى ، وتنطلق من حقائق الدين الحنيف وتستهدف تصحيح تعامل المسلمين مع كتابهم وسنة نبيهم ، وإعادة ترتيب أولويات العقل المسلم فى هذا العصر .

وقد مكننى عملى المهنى والأكاديمى فى ميدان الإعلام الإسلامى من الاقتراب من فكر الشيخ الجليل والتعرف على ملامح رؤيته الحضارية ، وهو ما سجلته فى الكثير من الحوارات التى أجريتها معه ونُشرت فى عدة صحف مصرية وخليجية ، فضلاً عن أننى قد تتلمذت على كتبه ومقالاته وقمت بالتغطية الصحفية لمعظم الندوات التى شارك فيها ، ولكن بعد رحيله وجدت نفسى مدفوعاً للاقتراب أكثر من فكر هذا العالم الجليل ، وشعرت أن علىّ جزءاً من المسئولية فى بيان رؤية هذا العالم الجليل وإسهاماته فى إصلاح الفكر الإسلامى وتجديده ، فقمت بإعادة قراءة كتبه والأعمال الفكرية التى نُشرت عنه ، فى محاولة منى لتحديد الموقع الفكرى للغزالى فى مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى

الحديثة ، وبيان معالم منهجه وملامح تجربته الدعوية ، فكان هذا الكتاب الذى أتمنى أن أكون قد وفقت أن أرسم فيه ملامح تجربة الغزالى الإصلاحية ، وإن كنت على يقين من أن فكر الرجل وتجربته الدعوية لا تزال بحاجة إلى العديد من الدراسات الأخرى .

محمد يونس

القاهرة : ١٥ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ

٦ أكتوبر ١٩٩٨م

تمهيد :

نشأة الغزالى وتكوينه العلمى وملامح شخصيته :

١- بين الرؤيا والتصديق :

من قبل مولده كان هناك استعداد خاص فى أسرته ليكون "محمد الغـزالى" رجـل تقـوى وورع وعلم، وذا شأن كبير فى علوم الدين ودنيا الناس..

بدأت الإرهاصات الأولى لهذا الاستعداد فى ليلة مباركة من ليـالى قريـة "نكـلا العنـب" بمحافظة البحيرة، فبعد أن أدى التاجر البسيط "أحمـد السـقا" صـلاة العشـاء وقـرأ أذكـاره ودعواته المعهودة، استلقى مبكراً فى سريره حتى لا تفوته صلاة الفجر .. وإذا به يـرى فـى منامه من يبشره بغلام اسمه "محمد الغزالى" ففـرح الرجـل بتلـك البشـرى وعـاش آمـلاً فـى تحقيقها. فقد كان رجلاً صوفيًا محبًا لرسول الله ﷺ وعاشـقاً لأبـى حـامد الغـزالى المتوفـى سنة٥٠٥هـ ، ورغم ما حل بالتاجر العابد من ذهول ودهشة لهذه الرؤيـا ، فإنـه بقـى علـى أمل أن يهبه الله هذا الغلام "تيمنًا بقصة امرأة عمـران -ولمـا أن جاءتـه البشـرى- صـدق الرؤيا، وأطلق عليه اسم (محمد الغزالى) ليكون اسمه بالكامل (محمد الغـزالى أحمـد السـقا).. وقد ولد فى الخامس من ذى الحجة ١٣٣٥ هـ الموافق ٢٢ سبتمبر ١٩١٧م .

وبدأ بتنفيذ عهده مع الله ؛ فأدخل محمد الغزالى كتّاب القرية ؛ ليحفظ القرآن الكريم تمهيدًا للالتحاق بالأزهر الشريف . وبالفعل مَنَّ الله عليه بحفظ القـرآن حفظـاً جيـداً أتمـه- رضى الله عنه- فى العاشرة من عمره .

ويحكى الشيخ محمد الغزالى عن نفسه وقتئذ فيقول : " كنت أتدرب على إجادة الحفـظ بالتلاوة فى غدوى ورواحى ، وأختم القرآن فى تتابع صلواتـى وأثنـاء سـيرى فـى الطريـق وقبل نومى وفى وحدتى ، وأذكر أننى ختمته أثناء اعتقـالى، فقـد كـان القـرآن مؤنسـاً فـى تلك الوحدة الموحشة" [1] .

وهكذا ظل القرآن الكريـم النـور والغـذاء الروحـى والفكـرى والمنبـع الأصيـل الـذى

استمر محمد الغزالى ينهل منه طوال حياته . وظلت هـذه الرؤيـا حـافزًا داخليـًا يدفعـه فـى الطريق الذى اختاره له الله ليؤدى رسالته التجديدية فى الفكر الإسلامى.

"ولم تخيب الأقدار ظن الوالد الطيب، فإذ (غزالى القرن الرابع عشر) يحمل روح (غزالى القرن الخامس) فى إحياء الدين وتجديده، وبعث الحياة فى جسد الأمة الهامد، على أسـاس من تعاليمه، وإن كان فى كل من (الغزاليين) ما ليس فى الآخر، وقد يوجد فى المفضول مـا لا يوجد فى الفاضل ، والله يهب من فضله ما يشاء لمن يشاء (والله ذو الفضل العظيم)[٢].

ولكن هذه التسمية وتلك الرؤيا لم تجعله أسير فكـر أبـى حـامد الغـزالى فقـط، وانطلـق ينهل من كل مشاعل الـتراث الإسلامى، فقـد قـال فـى هـذا الصـدد: " التسـمية اقـترنت بشخصى ولم تؤثر فى تفكيرى فأنا أنتفـع مـن تـراث أبـى حـامد الغـزالى صـاحب (تهـافت الفلاسفة) كما أنتفع من تراث خصمه ابن رشد صاحب (تهافت التهافت).

وهكذا واصل الشيخ الغزالى طريقه فى تلقى علوم الدين، فبعد أن أتم حفظ القرآن فـى قريته هاجر إلى الاسكندرية ليلتحق بالمعهد الأزهرى ، هناك وحصل على الشهادة الابتدائية ثم شهادة الكفاءة ثم شهادة الثانوية عام ١٩٣٧، ثم انتقل إلى القاهرة حيث التحق بكليـة أصول الدين بالأزهر ، وكان من أساتذته فى هذه الكلية عدد من كبار علماء الأزهر ، من بينهم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق ، وتخرج منها عـام ١٩٤١ (١٣٦٠ هـ) ثم التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وحصل منها على شـهادة العاليـة (الليسـانس) مع إجازة التدريس فى الدعوة ، وهو ما يعادل درجـة الماجستير . وفـى عـام ١٩٤٣ عـين إماماً وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء بالقاهرة ، وبعد ذلك ترقـى فـى وزارة الأوقـاف حتـى وصل مديراً للمســاجد ومديـراً للتدريـب ، وفـى عـام ١٩٧١ عـين مديـراً عامـًا للدعـوة والإرشاد بالوزارة ، ثم أعير أستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة عـام ١٩٧٧ ، كمـا عـين بجامعة قطر .

ثم انتقل إلى جامعة الأمير عبد القادر للعلـوم الإسـلامية بـالجزائر ؛ حيـث تـولى رئاسـة المجلس العلمى للجامعـة إلى أن اسـتقال عـام ١٩٨٩ حيـث تفـرغ للعمـل الإسـلامى الحـر وتأليف الكتب والدراسات الإسلامية.

ولمكانته العلمية الفكرية كرمته كثير من الدول العربية والإسلامية، فقد حصل على جائزة الدولة التقديرية من جمهورية مصر العربية، كما حصل على جائزة الملك فيصل في مجال خدمة الإسلام، وعلى أرفع وسام في موريتانيا، وأرفع وسام في الجزائر، كما كرمته السعودية، وقطر، والسودان.

وفي نهاية عام ١٩٩٠ حصل على جائزة دولية من باكستان تقديراً لجهوده في الدعوة الإسلامية. ومؤخراً منحته ماليزيا وسامها الأول عام ١٩٩٦، بالإضافة لكثير من جوائز الدول التقديرية ونياشينها.

٢- مفتاح شخصية الغزالي :

وقد توافرت للشيخ محمد الغزالي مجموعة من الصفات الخلقية تشكل محددات شخصيته، لعل من أبرزها. الصدق، والشجاعة ، والإباء ، واستقامة التفكير، والتواضع ، وإيثار الحق على غيره مهما كان الثمن ، وكراهية الظلم ، وطلب العدل والإنصاف ، والجهاد من أجل تحرير الأمة أفرادًا وجماعات من الذل والاستبداد .

وقد تضافرت هذه الصفات الخلقية مع تكوينه العلمي والثقافي واتساع اطلاعه على العلوم الإسلامية ، فتوافرت لديه جملة من الخصال الحميدة من أبرزها [٣] :

١- الاجتهاد القائم على سعة الإسلام ومرونته ومقاصد شريعته وكليات مصادره وغاياته العليا.

٢- السماحة والاعتدال اللذان ينبهان بوضوح إلى الفهم الدقيق لـ "وسطية الإسلام" والإدراك العميق لقيمه العليا (التوحيد والعمران والتزكية) والفقه المستفيض في معيار الإسلام الأساسي (العدل) الذي منه انبثق (الاعتدال)، واشتقت (الوسطية).

٣- الغيرة الصادقة على "الأمة القطب" التي انتمى إليها بعقله وقلبه ووجدانه فضلاً عن دمه وجسده، غيرة صادقة على دينها وأرضها وعرضها وأبنائها وماضيها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ووحدتها .

٤- القدرة النقدية ، والطاقة العقلية ، والمعرفة المتنوعة الواسعة ، والذكاء الخارق اللماح ، والطاقة المتجددة المتطلعة - على الدوام - إلى معرفة الجديد والمزيد في كل ما من شأنه أن يخدم هذه الأمة وقضاياها المتشعبة .

٥- الحب والوفاء لربه ودينه وأمته ورفاقه وتلامذته ، يساعده على ذلك قلب كبير نقى من الغل والحقد والحسد والبغضاء والكراهية . خالص للإيمان والحب والوفاء .

ولكن يمكن القول : إن الصدق والجرأة فى الحق والغيرة على الإسلام صفات ثلاث تشكل مفتاح شخصيته ، ولعل مواقفه العديدة منذ أن كان طالبًا فى المعهد الأزهرى وحتى وفاته تؤكد ذلك ، ففى السيرة الذاتية له التى كتبها ابنه الدكتور علاء محمد الغزالى وقدمها للحلقة الدراسية حول العطاء الفكرى للشيخ الغزالى التى عقدت بعمان عام١٩٩٦م أوضح أن زملاء والده ذكروا له أن الغزالى لم يكن يرضى بظلم يقع على أحد من زملائه وإنما كان المدافع عنهم والمعبر عن مطالبهم ، وقد شارك وهو طالب بالثانوية الأزهرية فى الأنشطة الطلابية لمقاومة الاحتلال الإنجليزى لمصر ، ودخل السجن ثم أفرج عنه بكفالة ، وقد ترتب على ذلك أن تأخر عاماً عن حصوله على الثانوية الأزهرية .

وهذه الصفات التى تشكل مفتاح شخصيته ، قد لازمته طوال حياته ، وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض مواقفه التى تعبر عن تلك الصفات :

* فى ٢١ مايو ١٩٦٢ خطب الرئيس المصرى جمال عبد الناصر خطابًا أمام المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فتعرض لقضية مساواة المرأة بالرجل فى كل الأمور ، فقام الشيخ الغزالى وهو عضو فى المؤتمر ليعرض وجهة النظر الإسلامية ، فطالب بالتزام شرع الله فيما يخص المرأة والرجل ، وطالب بتخفيف العبء عن المرأة والحد من الأمور التى تخرجها عن طبيعتها الأنثوية ، فصبت بعض الصحف جام غضبها على الشيخ الجليل ، واتهموه بالرجعية وتطاول رسام الكاريكاتير صلاح جاهين برسومات يلمز فيها الشيخ، فقامت عقبها مظاهرات ضارية ضد المتطاولين على الغزالى .

وبعدها ألقى الشيخ الجليل خطب الجمعة حول موضوع ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وتناول آداب المعارضة والاختلاف ، وكانت الخطبة قمة البلاغة والموضوعية،

وعقبها خرج الأزهر كله فى مظاهرة شعبية كبيرة متوجهة نحو مبنى جريدة الأهرام .

ولكنه – رحمه الله– ذهب للأهرام وقابل رئيس التحرير الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى أبدى كل ترحيب واحترام للشيخ الغزالى ، وقال : إن السيد كمال الدين حسين قد أصدر ما يفيد بمنع التعرض لقضايا فى المؤتمر تصطدم مع الدين .

* كان موقفه من تغيير قانون الأحوال الشخصية فى منتصف السبعينات واضحًا فقد رفض الشيخ هذا التغيير الذى رأى فيه علماء الدين أنه لا يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، وقد ندد الشيخ بالقانون فى ندوة بجامعة الأزهر ، وكذلك فى خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص ؛ حيث ألهبت خطبته حماس أكثر من ٣٠ ألف مصلٍ ، وقد تجمع العديد من المصلين ومن علماء الأزهر حول الشيخ ، فدفع ثمن ذلك الموقف وهو حرمانه من الخطابة فى مسجد عمرو بن العاص الذى كان قد أحياه وحوله إلى جامعة إسلامية مفتوحة ، وتم نقله إلى مسجد صلاح الدين مع منعه من الخطابة .

* بعد هزيمة ١٩٦٧ كون الشيخ محمد الغزالى فريق عمل مع المجاهد الكبير الشيخ حافظ سلامة ؛ حيث التقيا بالجنود فى مختلف المواقع لتثبيت الهمم وزرع الإيمان فى النفوس .

*رغم متاعبه الصحية سافر الغزالى إلى البوسنة والهرسك ليشارك المسلمين هناك أحزانهم ويشد من أزرهم ، وعقب عودته شارك فى مختلف الندوات والمؤتمرات التى عقدت فى مصر وخارجها لمناصرة مسلمى البوسنة ، كما قدم لهم مشروع دستور يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية .

وإذا بحثنا عن المعطيات التى أنتجت هذا العالم الجليل والمجدد الكبير، سنجد أنه بجانب نشأته فى أسرة متدينة وتعليمه الأزهرى الذى تميز بالوسطية الإسلامية، توافرت له أسباب ومعطيات أخرى، من أبرزها [٤] :

* سلامة الفطرة وما أودعه الله فيه من مدارك الفهم والبصر والتمييز، والوعى ورهافة الحس، وهذه كلها من عُدة المؤمن المثقف لمداخل التوفيق.

* إلمامه بأحوال السياسيات الجارية وتداخلها وتأثيرها على أوضاع الأمة ، وتنبهه لما

تتضمنه من خطط الإساءة والإثارة وتوقفه عند الأحداث البارزة ومحاولة استبطانها بفهم المتمرس الواعى .

* تجربته السياسية بانضمامه الى مدرسة حسن البنا التى فتحت ذهنه على كثير من ابعاد القضايا الإسلامية المعاصرة ، ثم خبرته بالحياة المعاصرة وموقع الدين فيها ، وإدراكه لدور الداعية الإسلامى ، فهو القائل : إن التدين "ليس علاقة موهومة با لله، فلا قيمة للتدين إذا لم يمنع الإسفاف ويدفع إلى التسامى ويقمع غرائز الاستعلاء وقهر الضعفاء . وأن من شروط الانطلاق مقاومة مواريث الثقافة المغشوشة التى تحتضن البدع والخرافات " .

* ما تشبع به فكره من منطق التسامح والتسامى عن الحقد والبغضاء والتطرف فيؤكد أن دين الإسلام (ألف – منذ بدأ يعاشر غيره– المياسرة واللطف، ورعاية حسن الجوار).

٣– الكتابة عند الغزالى موقف ورسالة :

*ألف الغزالى ثمانية وخمسين (٥٨) كتابًا كان أولها بعنوان (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) الذى صدر عام ١٩٤٧م . وآخرها بعنوان (من كنوز السنة) الذى صدر عام١٩٩٦م .

وقد ترجمت العديد من مؤلفاته إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والأوروبية .

بجانب هذه المؤلفات كتب الغزالى العديد من الأبحاث لعشرات المؤتمرات التى اشترك فيها بمختلف أقطار العالم ، كما أشرف واشترك فى مناقشة عدد من رسائل الماجستير والدكتوراة ، وقبيل وفاته بأيام كان يعد منهاجاً لتطوير التعليم فى الأزهر الشريف ، يواكب حركة التطور والتقدم الزاحف فى العالم أجمع . أما مقالاته الإسلامية بأنواعها فقد امتلأت بها الصحف والمجلات المصرية والعربية على السواء ، فلم يدع حادثة ألمت بالمسلمين إلا وأشار اليها وبين موقف الإسلام منها ، وكثيرًا ما كانت هذه المقالات تثير الغضب عند البعض ؛ لأنها كانت تنطق بالحق، ولكنه لم يبال بذلك وإنما كان مقصده هو ما عبر عنه بقوله : " وددت لو فرغت خواطرى ومشاعرى أولاً بأول ، حتى ألقى ا لله ولست كاتماً لعلم أو حابساً لنصيحة " .

والكتابة عند الغزالى موقف ورسالة ، ولم تكن للتكسب أو لملء وقت الفراغ ، وإنما كانت تفاعلاً خلاقاً مع واقع العالم الإسلامى وقضاياه ، فوراء كل كتاب أو مقال موقف أو رسالة أو غاية استهدفها الشيخ وعمل على توصيلها للناس ؛ لذلك فإن أولى كتبه لم تكن فى مجال الدعوة "تخصصه الأساسى" ولا فى مجال الفقه أو علوم الشريعة التى درسها فى الأزهر ، وإنما كانت رداً على غزو الفكر الشيوعى للمجتمعات العربية والإسلامية .

ففى مواجهة انتشار الفكر الشيوعى ألف كتب : "الإسلام والأوضاع الاقتصادية " الذى صدر عام ١٩٤٧م ، و" الإسلام والمناهج الاشتراكية " عام ١٩٤٨م ، و"الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين " ١٩٥٠م . وفى مواجهة هذا الفكر أيضاً كتب "الإسلام والزحف الأحمر" . بالإضافة إلى عدة مقالات نُشرت فى صحف ومجلات كثيرة .

وفى مواجهة الاستبداد السياسى باعتباره من أبرز العلل التى تعانى منها المجتمعات الإسلامية كتب " الإسلام والاستبداد السياسى " وهو عبارة عن محاضرات ألقاها الغزالى فى معتقل الطور عام ١٩٥١م ، ولقد عالج هذه القضية بعمق أكبر فى كتابه "أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية" الذى صدر عام ١٩٩٠م .

* وفى كتابه "من هنا نعلم " رد الشيخ على كتاب الأستاذ خالد محمد خالد "من هنا نبدأ " الذى احتوى على مغالطات من أبرزها ادعائه أن الدين ينفصل عن الدولة فى الإسلام ، وقد صحح المفاهيم المغلوطة التى تناولها المؤلف فى هذا الكتاب ؛ ليسد الطريق على محاولات علمنة الإسلام فى هذا المجال .

الجدير بالذكر أن الأستاذ خالد محمد خالد قد تراجع عن هذه الأقوال ، وسجل ذلك فى كتابه "الدولة فى الإسلام". ورغم هذا الخلاف الفكرى بينهما ، فإن الغزالى قد رفض موقف الأزهر حين جرد الأستاذ خالد محمد خالد من شهادة العالمية ، ونفى أن يكون الأستاذ خالد قد تعمد طعن الدين ورأى أنه قد كتب ما كتب معتقداً أنه الصواب ، وهكذا يقدم الغزالى بهذا الموقف مثالاً للاختلاف العلمى الراقى بين العلماء .

* وحين لمس تزايد المكائد ضد الإسلام ، بينما يضيع المسلمون طاقتهم فى صراعات فقهية سطحية كتب عدة مؤلفات تعالج هذه القضية ومنها :

" مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية " و " هموم داعية " .

* وفى مواجهة موجة التنصير التى تجتاح العالم الإسلامى الآن كتب :

" صيحة تحذير من دعاة التنصير" الذى يعتبر رداً مباشراً على مؤتمر عقد فى أمريكا لمناقشة خطط تنصير المسلمين فى العالم .

* وفى مواجهة تقصير المسلمين تجاه القرآن الكريم حيث حولوا القرآن الذى أحيا أمة من العدم إلى كتاب للموتى يقرأ فى الجنازات ، جاءت الدراسة التى أجراها معه الأستاذ عمر عبيد حسنة ، والتى صدرت عام ١٩٩١م بعنوان " كيف نتعامل مع القرآن ؟ " وفى هذه الدارسة محاولة جادة لتصحيح الكثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن الكريم ، واستنباط السنن القرآنية فى الأنفس والآفاق .

هذه هى بعض الأمثلة ، ولكن تبقى كتبه تعبر عن مواقفه ورسالته كداعية حاول تصحيح علاقة المسلم بدينه فى هذا العصر . واستمر يحمل هذه الرسالة حتى آخر لحظة فى حياته ، حيث وافته المنية أثناء مشاركته فى ندوة عن الإسلام والغرب فى إطار مهرجان الجنادرية بالمملكة العربية السعودية مساء يوم ١٩ شوال ١٤١٦ هـ (٩ مارس ١٩٩٦).
وشيع فى اليوم التالى لمثواه الأخير فى البقيع على بعد أمتار من قبر رسول الله ﷺ .

هوامش التمهيد

(نشأة الغزالى وتكوينه العلمى وملامح شخصيته)

١- د. علاء محمد الغزالى " السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالى " ضمن "العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى .. حلقة دراسية" تحرير د. فتحى حسن الملكاوى عمان ١٩٩٦ ص ١٨٣

٢- د. يوسف القرضاوى: "الشيخ الغزالى كما عرفته.. رحلة نصف قرن" المنصورة دار الوفاء للطبع والنشر ١٩٩٧ ط١ ، ص ١٨٦

٣- د. طه جابر العلوانى : " شيخنا محمد الغزالى رحمه الله وصفحات من حياته" مجلة إسلامية المعرفة، يناير ١٩٩٧، ص ٥ .

٤- إبراهيم شبوح : " العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى" مرجع سابق، ص ١٢-١٣.

الفصل الأول

الموقف الفكري للغزالي

(فى مدرسة التجديد الإسلامى الحديثة)



ينتمى الشيخ محمد الغزالى إلى مدرسة تجديد الفكر الإسلامى الحديثة ، ويعتبر أحد أجيالها في هذا العصر والتى بدأت في القرن الماضي على يد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧م) وتلاه جيل الإمام محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/١٨٤٩-١٩٠٥م) .

واستمرت من خلال الجهود الفكرية لرشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م) عبر مجلة المنار، ثم الجهود الإصلاحية لمصطفي المراغى (١٨٨١-١٩٤٥م) في الأزهر الشريف ، فقد سلكت هذه المدرسة رؤية تجديدية وإصلاحية حمل لوائها هؤلاء الرواد جيلا بعد جيل فأثمرت التكوين الفكري للشيخ محمد الغزالى (١٩١٧-١٩٩٦) الذى مثل الجيل الخامس فى هذه المدرسة .

وقبل أن نعرض للموقع الفكرى للشيخ الغزالى فى مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة. نشير بداية إلى مفهوم التجديد .

مفهوم التجديد :

انطلاقاً من خلود الإسلام باعتباره خاتم رسالات السماء، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، يحتوى الدين الحنيف على آليات ذاتية لتجديده ، وإذا بحثنا عن أصول مفهوم تجديد الدين فى القرآن الكريم والسنة النبوية، نجد أنهما احتويا على العديد من النصوص التى تشير إلى هذا المفهوم بشكل أو بآخر ، غير أن هناك نصًّا واحدًا يشير إلى التجديد بشكل مباشر ، هو الحديث النبوى الذى رواه أبوداود فى سننه والحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " .

وهناك أحاديث نبوية أخرى تشير إلى طبيعة التجديد، منها قول المصطفى ﷺ : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين "[1] .

أما فى القرآن الكريم فبالرغم من أن كلمة " التجديد بهيئتها أو فعلها " جدد " لم ترد

فيه ، فإن القرآن الكريم لا يخلو من التعبير عن مفهوم التجديد وعن أهم محدداته بمعان كثيرة أخرى تسهم فى تحديده وتفسيره مثل : الإصلاح ، والإحياء ، والتغيير ، والنور ، والتنوير[٢] .

وكل هذه المحددات تؤكد أن التجديد لا يعنى تغيير جوهر الدين أو أصوله ، وإنما يعنى إعادته إلى النقاء الذى كان عليه يوم نشأته ، حيث الأصالة الفكرية لأركانه وثوابته، أى تجديد الإيمان به والالتزام بتعاليمه الصحيحة بعيداً عما قد يعتريها من شوائب ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى يعنى تجديد الدين أيضاً القدرة على استيعاب مستجدات العصر وما يحمله من قضايا لم تكن معروفة من قبل، وتحتاج إلى بيان موقف الشريعة منها، ويتم ذلك من خلال الاجتهاد ، سواء كان فرديًا أو جماعيًا وإذا كان التجديد لا يعنى تقليدًا بلا بينة، فإنه لا يعنى تبديلاً للشرع تحت أى مسمى كان، كما أنه يجب ألا ينصرف معنى التجديد فى هذا السياق إلى معانى التجديد فى الدين والشرع ذاته ، بل هو فى حقيقته تجديد وإحياء وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه [٣] .

وقد يكون المجدد فردًا ، كالخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، أو الإمام الشافعى ، أو الإمام الغزالى ، وهو ما اتجه اليه الأكثرون فى فهم الحديث وقد يكون المجدد جماعة متعددة ، فى قطر واحد ، أو جملة أقطار ، فى مجال واحد ، أو عدة مجالات ، وكل منها يقوم على ثغرة من ثغر الإسلام . وهو ما مال إليه ابن الأثير والذهبى وغيرهما . وقد يكون المجدد مدرسة أو حركة فكرية أو تربوية أو جهادية ، تقوم بدورها فى حركة الإيقاظ والإحياء والتجديد . وهنا لا يكون دور المسلم أن يقول : متى يظهر المجدد؟ بل يكون قوله : مادورى فى حركة التجديد ؟[٤]

وإذا بحثنا عن دور الشيخ محمد الغزالى وإسهاماته باعتباره " أحد أعمدة التجديد الإسلامية الرئيسية فى هذا العصر "[٥] نجد أنه لا ينفصل عن مدرسة التجديد والإحياء فى العصر الحديث التى نشأت على يد جمال الدين الأفغانى ، كما لا تنفصل تجربة الغزالى الإصلاحية والتجديدية عن المدارس الفقهية والمدارس التجديدية التى شهدها تاريخنا

الإسلامى ، ولكن ارتباط الغزالى بمدرسة التجديد والإحياء الإسلامى الحديثة بقيادة الأفغانى كان أقوى ، بحكم التقارب الزمنى بين رموز هذه المدرسة عبر الأجيال المتابعة التى يمثل الغزالى الجيل الخامس فيها .

ولا شك أنه قد سبقت مدرسة الأفغانى حركات إصلاحية وتجديدية فى بعض البلدان العربية تركز على إصلاح العيوب الداخلية من منطلق الدين وتعاليمه، لكن روادها لم يلتفتوا إلى ما جد فى العالم من تطورات ، وما قطعه الغرب من أشواط فى ميدان التقدم والمدنية . فظلت نظرتهم الإصلاحية أحادية الجانب مشغولة بالهموم الداخلية وحدها دون رؤية لما يحيط بالعالم الإسلامى من عوالم أخرى تشارك العالم الإسلامى فى العيش على هذه الأرض .

أما جمال الدين الأفغانى فقد كان بجانب معرفته بعيوب العالم الإسلامى وضعفه الداخلى، قد امتد بصره إلى خارج العالم الإسلامى فرأى رؤية مباشرة إيجابية العالم الغربى وقوته، ومكنته هذه الرؤية من عمق المعرفة بالأزمة التى كان يعيشها المجتمع الإسلامى آنذاك ، ودقة التشخيص للأدوار التى أحاطت به [٦]

وقد ترك المشروع الفكري للأفغاني تأثيرا كبيرا علي أجيال هذه المدرسة بدءا بالإمام محمد عبده وحتي الشيخ الغزالي ، وكانت إقامته في مصر بمثابة الشرارة التي أشعلت طاقات بعض المثقفين المصريين و(جعلتهم يتحولون من الفرجة إلى المشاركة) على حد قول الدكتور على شلش في دراسته : (جمال الدين الأفغاني بين دارسيه) التى نبه فيهـا إلى أن الغموض والتباين الذي نظر به كثير من المؤرخين إلى شخصية هذا الرجل كان بسبب نقص المعلومات عن حياته إلى أن كشف النقاب عن كثير من الوثائق التي تتعلق بحياته عام١٩٦٣ . ومن ثم فمن اللازم أن نشير إلى أبرز ملامح المشروع الفكرى للأفغانى الذى يمثل رؤيته التجديدية والإصلاحية . وهناك سبب آخر لضرورة هذا الربط بين هذا المجدد وأجيال مدرسة التجديد الإسلامي الحديثة ، وهو المناخ الفكري السائد اليوم الذي تتصاعد فيه جرأة المتغربين علي ثوابت الإعتقاد الإسلامي فضلاً عن محاولات تزييف وعي الأمة من خلال خلط أوراق التجديد الإسلامى ـ الذى إرتاد الأفغاني ميدانه في العصر الحديث بالتنوير الغربي العلماني الذي يقيم قطيعة معرفية مع ثوابت الإعتقاد الدينى كما

يقول الدكتور محمد عمارة في دراسته : (جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض) فدعاة التزييف قد ذهبوا في الإلتفاف حول الحقائق إلى الحد الذي يضعون فيه أعلام التجديد الإسلامي في (سلة التغريب) !!

يتمحور المشروع الفكرى للأفغانى الذى يمثل رؤيته التجديدية والإصلاحية حول قاعدتين هما العقل والمساواة، وقد استقى الأفغانى هاتين القاعدتين من خلال النظر للواقع العربي الإسلامي المأزوم والفكر الغربى[٧] وأيضاً اعتماداً على قيم الإسلام الحضارية، ومحاولة اعتماد الأفغانى للعقل كنقطة بدء لم تكن تضع فى اعتبارها هذه القطيعة التى تمت فى الغرب بين العقل والدين، ولكنها كانت من باب أولى محاولة لتنقية الدين مما علق به من شوائب أصبحت تعيق حركة المجتمع ونموه وخروجه من كبوته، والأفغانى لم يفكر يوماً في إحلال العقل محل الدين ، بل كان غاية ما يود القيام به هو تنقية العقائد الدينية والنصوص الشرعية عن طريق العقل . ومن هنا نجد أن حركة الإصلاح الدينى والاجتهاد اللذين دعا إليهما يعتمدان على العقل ، كما أن دعوته فى الاقتباس من الغرب اعتمدت أيضاً على العقل .

ومبدأ المساواة يترجم لدى الأفغانى فى محيطين ، محيط داخلى ، ينبغى تحقيقه داخل البلدان الإسلامية بين أفراد المجتمع وحكامه من الولاة والسلاطين ، وهذا لن يتحقق إلا عن طريق الدستور ، ومحيط آخر خارجي ينبغى تحقيقه بين الشعوب والأمم ولا يمكن تحقيقه إلا بالقوة الإسلامية التى تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع الغرب ، ولكى تتحقق هذه المساواة الخارجية ، ينبغى لشعوب الشرق مقاومة الاستعمار عن طريق فكرته فى الجامعة الإسلامية [٨] .

وتعتمد رؤية الأفغانى لهذا المشروع التجديدى أولاً على إعمال العقل فى حركتين متوازيتين ، الأولى ستؤدى إلى الاجتهاد فى الدين وإلى إصلاح دينى ينقى العقلية الإسلامية مما يسهم فى تهيئتها لقبول الاقتباس العلمى من الغرب للنهوض المادى ، وهذا فحوى الحركة الثانية، وينتج من كلا الحركتين توفيقية تستطيع تحقيق ما عجزت عنه المشاريع الأخرى وخاصة السلفية الكلاسيكية منها التى اعتبرت أن علوم الغرب كفر ؛

لذا ينبغي تركها . هذه – التوفيقية الأفغانية التي لم تبرز مرة واحدة لديه، بل تحققت عبر سنوات عديدة – فهمها الأفغاني على أنها الطريق الوحيد الذى يجعل دول الشرق الإسلامي تقف على أرضية التقدم المادى مع الغرب ، وفي نفس الوقت تحتفظ بتراثها الديني الذى يميزها عنه .

وقد حدد الأفغاني ستة عوامل تمثل مقومات تحقيق النهضة في العالم الإسلامي هي: الأخذ بالعلم والعقل على المستوى الثقافي ، وتحقيق الحرية والمساواة على المستوى الاجتماعي ، والعدل والشورى على المستوى السياسي ، وإذا كانت هذه العوامل هي التي أحدثت النهضة في الغرب ، فإنها تعد عقيدة وشريعة في الإسلام (٩) .

وقد آثر الشيخ محمد عبده أن تستمر الجهود التجديدية والإصلاحية على المستوى التعليمي والتربوى ، وحدد هدفه من الإصلاح في [تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى ، واعتباره ضمن موازين العقل البشرى التي وضعها ا لله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة ا لله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل (١٠) .

وقد عكف رشيد رضا على دراسة منهج الأفغاني و منهج محمد عبده في الإصلاح والتجديد ، فرغم أنهما ينتميان إلى مدرسة واحدة إلا أن هناك نوع من التمايز بينهما ، فالأفغاني لم ير سبيلاً للإصلاح سوى السياسة ، في حين نادى محمد عبده بالإصلاح والتجديد عبر التربية والتعليم ، وخرج رشيد رضا بحقيقة واضحة وهي أن الإصلاح عن طريق السياسة أدنى وأسرع ، وأن الإصلاح عن طريق التعليم أثبت وأدوم ، وأن كل منها يفضى إلى الآخر ، لذا مزج رشيد رضا بين المنهجين .

أما الشيخ محمد مصطفى المراغى فقد تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده وتأثر بمنهجه الإصلاحى ، بل كان مولعا بالإصلاح والتجديد في كل مجال عمل به ، وتزعم الدعوة إلى

فتح باب الإجتهاد وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة ، فعندما عمل بالقضاء وتولى رئاسة المحكمة الشرعية العليا شكل لجنة لتنظيم لائحة الأحوال الشخصية برياسته ولم يتقيد بمذهب الإمام أبى حنيفة كما كان متبعا آنذك ، وكان في هذا الإتجاه متأثرا بشيخه الإمام محمد عبده ، وعندما تولى مشيخة الأزهر (١٩٢٨- ١٩٢٩و١٩٣٥- ١٩٤٥) عمل على إصلاح مناهج التعليم بالأزهر ووضع مذكرة تتضمن رؤيته للإصلاح المنشود معتبراً أن هذا الإصلاح لحماية الدين وليس لحماية الأزهر ، ورأى ضرورة أن يدرس طلاب الأزهر علوم القرآن والحديث النبوى بأساليب جديدة يبتعد فيها عن كل ما أظهر العلم بطلانه . وأن يتم تهذيب العقائد والعبادات وتنقيتهما مما لحق بهما من بدع ، وأن يكون تدريس الفقه بطريقة تخلو من التعصب لأى مذهب من المذاهب ، و تدريس مقارنة الأديان بالأزهر .

من المؤكد -إذن- أن هذه المدرسة قد تركت تأثيرها الواضح على الشيخ محمد الغزالى ورؤيته التجديدية والإصلاحية ، بل يمكن القول : إن اجتهاداته هى الثمرة الناضجة لجهود هذه المدرسة الإصلاحية التى بدأت بوجه سياسى على يد الأفغانى ، ثم اتخذت منهجاً تربويًا تعليميًا تكوينيًا متأنيًا على يد محمد عبده، ثم عادت على يد رشيد رضا ومدرسة المنار لتشتغل فى إطار العلوم الشرعية مع الاهتمام بقضايا العالم الإسلامى السياسية . وقد كان لمدرسة المنار فضل في تعميق الخطين معاً : الخط السياسى الثورى للأفغاني، والخط التربوى التكوينى لمحمد عبده، وذلك مع تصحيح أطر التفكير التى أرساها كل من هذين الرائدين .

ثم أخذت هذه المدرسة جانبًا تنظيميًا وتجديديًا على المستوى التعليمي بالأزهر الشريف على يد مصطفى المراغى والشيخ محمد أحمد الظواهري(١٨٨٧- ١٩٤٤م) الذى تولى مشيخة الأزهر عام ١٩٢٩ وتم في عهده تنظيم الدراسة في الأزهر في ثلاثة كليات هى : الشريعة ، وأصول الدين ، واللغة العربية .

وقد أسهمت إشعاعات تلك المدرسة فى إنضاج أفكار عدد من أعلام الفكر والعمل السياسى الإسلامى مثل عبد الحميد بن باديس وعبد الكريم الخطابى وحسن البنا. وهنا

يمكن إرجاع الفضل إلى جهود الشيخ رشيد رضا فى تنقية فكر الشيخين الأفغانى وعبده ، وترشيحه عبر منظوره السلفى النقلى ، وتقديمه مخلصًا من شوائبه وشطحاته، ليكون أساساً لفكر عصر اليقظة الإسلامية .

ويعتبر الشيخ محمد الغزالى من جملة المفكرين الذين ورثوا خط الشيخ رشيد رضا النابض ، وقد استطاع الغزالى أن يعطى ذلك الخط دفعة قوية ، من خلال دراسته الشرعية النظامية بالأزهر الشريف ، ومن اتصاله بجماعة الإخوان المسلمين التى انتظم فى خطها إلى أواسط الخمسينيات ، ثم انفصل عنها بعد ذلك [١١]

وقد تأثر الشيخ الغزالى بفكر حسن البنا ونشأ فى حركة الإخوان التى أسسها البنا إلا أنه لم يستمر فيها وإنما اختار لنفسه طريقاً خاصاً متميزاً انطلاقاً من استقلالية رأيه والروح النقدية التى لعبت دوراً بارزاً فى دفعه ليكون بحق أحد رموز التجديد الإسلامى فى العصر الحديث ويحمل لواء الجيل الخامس فى مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة .

وقد ذكر الشيخ الجليل أنه تلميذ حسن البنا (١٣٢٤- ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦- ١٩٤٩م) ولكن ذلك ليس بالأمر الكافى والشافى فى التحديد الدقيق لموقعه الفكرى - كما يقول المفكر الإسلامى الدكتور محمد عمارة- ويضيف أن فى هذه المدرسة ، أكثر من موقع فكرى وفصائل فكرية بينها ما هو أكثر من "التمايز" فى المواقع الفكرية، وخاصة بعد رحيل البنا .

ومن ثم فإن الغزالى قد تميز برؤية تجديدية مستقلة عن هذه الجماعة

ويحاول الدكتور عمارة أن يحدد الموقع الفكرى للشيخ محمد الغزالى من واقع تحديد الغزالى نفسه للمدارس الفكرية فى حضارتنا الإسلامية وذلك فى كتابه "دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" الذى يشير فيه إلى أن الفكر الإسلامى قد عرف أكثر من مدرسة ومن أبرزها

*مدرسة الرأى . وقد نظر فقهاء هذه المدرسة إلى الظروف والملابسات التى أحاطت

بـ(الأثـر) أى (النـص) و(الحديـث) منـه بوجـه خـاص- ففسـروا الحديث في ضـوء هـذه الملابسات ، وفى إطار الآيات القرآنية المحكمة.. (وجعلوا الآية القرآنيـة المحكمـة حاكمـة على الحديث، ومحددة لمعناه)..

فلم تكن - (مدرسة الرأى) - كما يحسب البعض- بعيدة عن (الأثر) وإنما كان هـذا هو منهجها فى التعامل معه عند الاجتهاد لاستنباط الأحكام..

*مدرسة الأثر وهى وإن لم تتنكر لـ(الرأى) جملة - كمـا يحسـب البعـض- فإن الـذى ميزها عن (مدرسة الرأى) هو موقفها الذى (كاد أن يكون إمضاء لظاهر النص، مـع بعـد عن الحرفية.. وإن كان هذا البعد عن الحرفية يتلاشى فى بعض القضايا..).

*المدرسة الثالثة : وقد اتجهت إلى الموازنة والترجيح بين مدرستى الأثر والرأى.. وكـان تبلور هذه المدرسة الجديدة فى القرن السابع الهجرى ، على يد شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة (٦١١-٧٢٨هـ/١٢٦٣-١٣٢٨م) وتلامذتـه القدامى- وخاصـة ابـن القيـم (٦٩١-٧٥١هـ/ ١٢٩٢-١٣٥٠م).. وهذه المدرسة أفادت من الـرأى والأثـر معًا ، وإن كـان انتصارها للأثر أظهر ، ودفاعها عنه أظهر وأقدر ؟!

*أمـا المدرسـة الرابعـة : وقـد تبلـورت فـى تاريخنـا الحديـث ، بمجـرى محـاولات أمتنـا للنهوض الحديـث .. ومـن أعلامهـا وأئمتهـا وعلمائهـا : الشـيخ محمـد عبـده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) وتلميـذه الشـيخ محمـد رشـيد رضـا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ-١٨٦٥-١٩٣٥م).. ويتبعهـم الشـيخ محمـود شـلتوت (١٣١٠-١٣٨٣هـ/١٨٠٣-١٩٦٣م)، ومحمـد عبـدالله دراز (١٣١٢-١٣٧٧هـ/ ١٨٩٤-١٩٥٨م) وقبلهـم الشـيخ محمـد الخضـرى (١٢٨٩-١٣٤٥هـ/١٨٧٢- ١٩٢٧م) ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦-١٣٩٤-هـ/ ١٨٩٨- ١٩٧٤م).. وغيرهم من مجددى ومجتهدى عصرنا الحديث .

وهذه المدرسة وإن اعتمدت الأثـر والـرأى معًا ، وسـلكت سـبيل الموازنـة والـترجيح بينهما، فإنها تميزت عن مدرسة ابن تيميـة (بترويجهـا للعقـل ، وتقديـم دليلـه ، واعتبارهـا

العقل أصلاً للنقل . وهى تقدم الكتاب على السنة ، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد . وهى ترفض مبدأ النسخ وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون فى القرآن نص انتهى أمده . وترى المذهبية فكرًا إسلاميًا قد ينتفع به ، ولكنه غير ملزم ، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى ، وتحترم علم الأئمة وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية ، ولا تلقى بالاً إلى مقولات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة)..

وينتهى الدكتور عمارة إلى أن الغزالى هو واحد من أعلام المدرسة الفكرية التى يطلق عليها "مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة لفكر الإسلام"، وخاصة فصيلها الذى انتقل بقضايا الفكر الإسلامى من إطار (الصفوة) – كما كان الحال على عهد الشيخ محمد عبده– إلى إطار (الأمة وجماهيرها) – وهى المرحلة التى بدأت بالشيخ حسن البنا عليه رحمة الله[١٢] .

ولكننا " نظلم الشيخ الغزالى إذا لم ننبه إلى تميزه فى الفصيل الذى كان حسن البنا إمامه فى مدرسة الجامعة الإسلامية.. فلقد كان متميزًا منذ بدأ مشروعه الفكرى– سنة ١٩٤٧م – بكتابه الأول (الإسلام والأوضاع الاقتصادية).. ثم إن الرجل قد امتدت به التجربة وامتد به الجهاد بعد استشهاد حسن البنا أكثر من أربعين عامًا .. فواجه ما لم يواجه هذا الفصيل فى النصف الأول من القرن العشرين .. ومن ثم فقد أبدع الجديد الذى أضافه إلى رؤية هذا الفصيل" [١٣] .

غير أن الغزالى كان ينهل من الإسلام ذاته ومصدريه الأساسيين القرآن الكريم والسنة ولا يرى فى تنوع هذه المدارس بخاصة بعد الأئمة الأربعة أى ضرر ، وإنما يعتقد بيقين ثابت أن "الإسلام هو صائغ أولئك الرجال كلهم، وهم لم يصوغوه. وأن مصادر الإسلام معصومة ؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم ؛ لأنه من عند الناس . وأن الانتفاع بكل فقيهٍ ذكى يدعم مسيرتنا العلمية، ولا يغيرها أبداً ، ويجب أن تنتفى الحساسية والكراهية للأشخاص . وأن وجود هنات فى رأى هذا أو سيرة ذاك لا تهدم عبقريته أو تخدش تفوقه إن كان صاحب عبقرية وتفوق" [١٤] .

ويعد العطاء الفكرى للغزالى (كتباً ومقالات وخطباً وأحاديث صحفية) مشروعًا تجديديًّا معاصراً خاض به الشيخ قضايا عصره بعقلية الداعية والمجدد ، وقد توافرت له رؤية نقدية مكنته من أن يتعرف على أمراض المجتمع ومشاكله الداخلية والخارجية بنفس المستوى الذى خاضت به مدرسة التجديد والإحياء الحديثة معترك الحياة منذ جمال الدين الأفغانى ومرورًا بتلاميذه جيلاً بعد جيل ، خاصة وأن القضايا التى واجهت رواد هذه المدرسة لا تزال تشكل محورًا أساسيًّا فى المشروع الفكرى الإسلامى المعاصر .. نعم قد تختلف الدرجة والنسبة ، وقد تستجد قضايا أخرى ، ولكن تظل مجموعة من المحاور الأساسية مطروحة بحاجة إلى إعمال العقل الإسلامى ، بل إن الظروف التى أنتجت جمال الدين الأفغانى لا تزال مستمرة بشكل أو بآخر ، نعم حدث الاستقلال السياسى فى المجتمعات الإسلامية ، ولكن ظلت التبعية الاقتصادية والثقافية والإعلامية ، فلا يزال الغرب هو (المركز المنتج) ولا يزال الشرق الإسلامى هو (الهامش المستهلك) ، وعلى المستوى الداخلى لا يزال الاستبداد السياسى قائماً فى العديد من المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، وإن احتوت على أحزاب سياسية وأنشأت برلمانات ، ولا تزال قضية الهوية مطروحة بل تزايدت أهميتها فى ظل انتهاء الحواجز بين الدول ، حيث نعيش عصر الكوكبية وثورة المعلومات وتناقص سيادة الدولة لصالح الشركات المتعددة الجنسيات، بخاصة بعد توقيع اتفاقية الجات.. ومن ثم فإن الدواعى العقدية والفكرية والسياسية التى حركت الأفغانى على المساحة الواسعة التى عمل لها، مازالت هى نفس الدواعى التى تحرك العاملين فى مجال إيقاظ الوعى وإحياء الروح وتنوير العقل على نفس المساحة من بلاد الشرق .

"ومازالت المشكلات هى المشكلات: سوء فهم العقائد والجنوح بها والتواكل وفصلها عن العمل والواقع، ومازال البحث عن الهوية وتحديد معالم الطريق بين تحديد الهوية وضياع الذات والبحث عن الخلاص من التسلط والقهر، والمواءمة بين الوحدة والتعددية واستيراد العلم والتقنية وإنتاجهما" (١٥) .

لكل ذلك فإن الغزالى وجد نفسه وهو الذى يمثل الجيل الخامس فى مدرسة التجديد

والإحياء الإسلامى الحديثة مدفوعاً لأنْ يواصل الطريق الذى بدأه الأفغانى وسار عليه محمد عبده وبقية أجيال هذه المدرسة التى لن ينقطع روادها جيلاً بعد جيل، بل سوف يستمرون ما بقيت الحياة ، فهذه هى إحدى آليات خلود رسالة الإسلام التى حفظها ا لله تعالى ، وجعل لها على رأس كل قرن من يجدد للمسلمين شأن دينهم وفقاً لما جاء فى الحديث النبوى الشريف (إن ا لله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) – رواه أبو داود والحاكم – .

ويتحدث الغزالى عن رواد المدرسة التى ينتمى إليها فيقول : (كان جمال الدين الأفغاني أول من أبصر الحقد التاريخي في ضمير الاستعمار الغربي ونبه المسلمين إلى أن أوروبا لا تزال تحمل ضغائن (بطرس الناسك) في تعامله مع المسلمين .

وكان محمد عبده أول من أحس حاجة الأمة إلى تربية واعية ، تتعهد سلوكها بالعقل المؤمن ، وتحرس نظامها بالشورى العامة .

وكان محمد رشيد رضا ترجمان القرآن وشارة السلفية الصحيحة والمفتى العارف بأهداف الإسلام والمستوعب لآثاره) [١٦] .

ثم يضيف : وما كان حسن البنا ولا الأقربون منه يخدمون الإسلام بالعنف أو ما يسمى الآن بالإرهاب. وقد قابلته يوم مقتل الخزندار مستغربا ما حدث وكان القتلة من الإخوان فأقسم با لله أن القاتل لو كان في السماء لبحث عن طريق يصعد به إليه ليمنعه مما فعل) .

وهكذا حدد الغزالي بنفسه موقعه في هذه المدرسة التي قادها جمال الدين الأفغاني بدءًا من النصف الثاني من القرن الماضي .

.. ربما لم يكن من قبيل المصادفة أنه فى الوقت الذى كانت تستعد فيه الأجهزة الثقافية فى مصر للاحتفال بمرور مائة عام على رحيل الأفغانى ، توفى الشيخ الغزالى !!



هوامش الفصل الأول

(الموقع الفكرى للغزالى فى مدرسة التجديد الإسلامى الحديثة)

١- الحديث ذكره الإمام ابن القيم فـى : (مفتاح دار السعادة) بيروت: دار الكتب العلمية ج ١ ص ١٦٣- ١٦٤.

٢- د. سيف عبدالفتاح : (التجديد السياسى والواقع العربى المعاصر.. رؤية إسلامية) جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٨٩م ، ص٤ .

٣- المرجع السابق ، ص٤

٤- د. يوسف القرضاوى : (الشيخ محمد الغزالى كما عرفته .. رحلة نصف قرن) القاهرة : دار الوفاء، ١٩٩٧، ص١٨٥.

٥- المرجع السابق ، ص١٨٥

٦- د. محمود حمدى زقزوق فى (احتفالية المجلس الأعلى للثقافة بمرور ١٠٠ عام على رحيل الأفغانى القاهرة: يونيو ١٩٩٧).

٧- د. مجدى عبدالحافظ:(جمال الدين الأفغانى وإشكاليات العصر) ، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٧ ص ٩٧.

٨- المصدر السابق ، ص٩٨ -٩٩

٩- محمد يونس: (الأفغانى لا يزال نموذجًا شامخًا للتجديد الإسلامى) الأهرام ١٩٩٧/٧/٤ (صفحة الفكر الدينى).

١٠-محمد عبده [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق :محمد عمارة ، بيروت : المؤسة العربية ، ج ٢ ، ص ٣٠٨

١١- د. محمد وقيع الله: (ملامح الفكر السياسى للشيخ الغزالى) فى مجلة إسلامية المعرفة، العدد السابع يناير ١٩٩٧، ص ١٠٦-١٠٧

١٢- د. محمد عمارة: (الشيخ الغزالى الموقع الفكرى. والمعارك الفكرية) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص٣٦- ٤٠ .

١٣- المرجع السابق ، ص ٤٣ .

١٤- محمد الغزالى: (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) القاهرة : دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٨٨،ط ٢، ص ٧٧ .

١٥- د. عبدالمعطى بيومى: (ماذا بقى من جمال الدين الأفغانى) فى: " احتفالية وزارة الثقافة المصرية بمرور ١٠٠ عام على رحيل الأفغانى" .

١٦- محمد الغزالى : الحق المر ، الجزء الخامس ،القاهرة : نهضة مصر ، ١٩٩٦ ،ص ٤- ٥ .

الفصل الثاني

معالم منهج الغزالي

في تجديد الفكر الإسلامي



يمكن أن نتلمس المشروع التجديدى للشيخ الغزالى من خلال جهوده فى الفكر والدعوة والتوعية والتربية ، وأيضاً من خلال عمله فى الحركة التجديدية (مدرسة حسن البنا) وإن انفرد هو بخصائص فكرية وتربوية تميزه عن فصائل هذه الحركة وتضفى عليه درجة من الاستقلالية .

بل إن تجربة الغزالى التجديدية فى الفكر الإسلامى قد تميزت عن سائر تجارب رواد التجديد فى مدرسة الإحياء الإسلامية الحديثة، من حيث اقترابه من الناس وتأثيره فى قلوب جماهير المسلمين ، ربما لأن الغزالى قد عايش الناس وامتلك قدرة هائلة على تبسيط فكره ، سواء كان ذلك فى خطبه وأحاديثه أو كتبه ومقالاته

ولكن لم يقم الغزالى بصياغة منظومة فكرية لمشروعه التجديدى، محكومة بآليات المنطق التقنى ومناهج العلم الطبيعى على النحو الذى فعله الكثيرون من المفكرين والفلاسفة، ربما لأن منظومته التى تمثلها وسعى على الدوام إلى نشرها كانت "الإسلام" نفسه ، فى جملته وفى وجوهه التفصيلية المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والروحية ، ولأن المبدأ الرئيسى الموجه لتجربته وحياته تمثل فى أن (الإسلام للحياة) لكن ذلك لا يعنى أبداً أن تجربة الشيخ الروحية كانت تجربة (شاردة) تند عن الموجهات المنهجية والمبادئ التأسيسية الصلبة التى كانت توجه حراكه النظرى والعملى فى دنيا البشر ، أو أنها كانت محض تمثلات (عاطفية) أو مجرد وعظ إقناعى يتوجه به إلى عامة الناس . فواقع الأمر أن المبادئ الموضوعية التى أسست العقل الإسلامى الغزالى كانت ماثلة على الدوام فى جميع أعماله العلمية والفكرية، كما أن الذين استمعوا إلى دروسه أو التقوا به يعرفون ذلك حقًّا [1] .

وإذا كانت حركة الإصلاح والتجديد الإسلامية الحديثة والمعاصرة قد عرفت فى تركيبها العملى والنظرى الشامل ، " ثلة مرموقة من الرجال الذين رفدوها بعلم نظرى غزير وبعمل (دعوى) وفير فإننا لا نفتأ نذكر محمد بن عبدالوهاب ، والقاضى الشوكانى، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وعبد الحميد بن باديس ، وحسن البنا ، والقاسمى ، والمغربى ، والألوسيين ، والندوى ، والمودودى ، وسيد قطب

وكثيرين آخرين ، لكننا لا نملك إلا الإقرار بأن الشيخ محمد الغزالى كان فى تقدير جملة الناظرين أبعدهم أثراً وأكثرهم نفاذاً إلى قلوب جمهرة المسلمين فى هذه العقود المتأخرة من القرن ، فضلاً عن القطاع الأغلب من (الملأ) منهم." [٢] .

وباستقراء أعمال الغزالى يمكن القول بأن سمة الاجتهاد والتجديد حاضرة بوضوح فى كل إنتاجه ، سواء فى تركيبه للأفكار أو فى أسلوبه فى الطرح والحوار ، أو فى الوعاء اللغوى الأنيق الذى استخدمه لبث تلك الأفكار ، وعلى مدى نصف قرن ونيف من جهاده الفكرى هبت فى وجهه مختلف الجبهات المتناقضة فى تفكيرها ، والمتحدة من حيث اعتراضها على أفكاره ومتطلباته التجديدية .

وقد كانت اصطدامات عنيفة حقًا ؛ إذ لم يكن الشيخ هو الآخر ممن ينحنون للعواصف، ودارت رحى جدال عنيف حام ، أصلى فيه الشيخ معارضيه من العلمانين وأولياء الجمود والتبعية – مثلما أصلوه – من قارص القول وحديد الكلم، ولكن المعركة انجلت فى النهاية عن انتصار واضح لصالح الفكر التجديدى المستقبلى الذى نافح عنه الشيخ، وانكسار واضح لقواعد الجمود والتقليد وتيارات الغزو الفكرى ، التى توطدت فى بلادنا منذ زمن بعيد .. ولقد كان ذلك البلاء الفكرى هو بعض ما أهله لأن تعده الدكتورة ايفون حداد – إحدى خبيرات الفكر الإسلامى فى الغرب – واحداً من أقوى العلماء الذين تصدوا لغزوة الأفكار الغربية الحديثة التى كان من الممكن –كما قالت– أن تصيب الإسلام بمثل ما أصابت به المسيحية واليهودية فى أوروبا." [٣] .

ويرتكز المشروع الإسلامى التجديدى للغزالى على أربع ركائز أو مبادئ موجهة لتجربته هى : الإيمان ، والعقل ، والعلم ، والعاطفة الوجدانية . ويؤكد الدكتور فهمى جدعان– عميد كلية الآداب بجامعة البنات الأردنية – أنه يمكن رد هذه المبادئ الأربعة إلى حدين مركزيين تتردد بينهما جميع هذه المبادئ هما : حدا الإيمان من طرف أول وإليه يرد مبدأ العاطفة الوجدانية ، والعقل من طرف ثان وإليه يرد العلم أساساً .

ويمثل الإيمان الواقعة المبدئية الصلبة لكل ما صدر عن الغزالى من قول أو نشاط أو

فعل. ومن الطبيعى أن يكون الأمر علـى هـذه الحـال ؛ لأن الرجـل أسـلم نفسـه للإسـلام وعلق به حياته كلها، ورهن هذه الحياة لرسالته الدعوية المناضلة . والإيمـان عنـده لم يكـن مجرد إقرار باللسان وتصديق بالقلب ، مثلما عرفه أهل الفـرق الإسـلامية القديمـة ، فهـذا التحديد ناقص ؛ إذ إنه يغفل عن أسس وخصائص أخرى موضوعيـة يتقـوم الإيمـان بهـا ، فالغزالى يحدد الإيمان بأنه " معرفة بلغت حد اليقين أو هـو علـم يصحبـه الجـزم والقطـع " (محمد الغزالى، الجانب العاطفي من الإسـلام : ٢٦) . لا شـك أن هـذا اليقـين تصديـق و لكن هذا التصديق ذو أساسين صلبـين : أولهمـا نظـرى وثانيهمـا نفسـى: عقلـى، وقلبـى) فمعنى أن نؤمن با لله أننا نعرفه، وأن هذه المعرفة معرفة (ممتلئـة) بـاليقين ، لا يسـاورها أى شك أو ريب أو تردد ، وأن التصديق الذى يتلبســها هـو تصديـق عقلـى يسـتند إلى أدلـة موضوعية وعلمية ، ونفسـى يتمثـل فـى الاطمئنـان إلى هـذه الحقيقـة ، وفـى سـريان تيـار شعورى فى النفس ، يملؤها ثقة وإقبالاً على الحياة وعلى ا لله ورضوانه (٤) .

أما العقل عند الشيخ الغزالى فإنه يفارق التيار العقلانى الخالص الذى مثله فى الإسلام المعتزلة وابن رشـد وجملـة المتكلمـين والفلاسـفة ؛ إذ لم يخـص العقـل بمطلـق المرجعيـة فـى المعرفة. كما يفارق تيار أصحاب الحديث القدماء الذين خصوا (النـص) بمطلـق المرجعيـة، ولم يتمثلوا لأنفسهم هذا المركب الفريد للمعرفة .

لا شك أننـا نسـتطيع أن نتصـور أن هـذا الموقـف ليـس إلا تركيبـاً بـين (تيـار الـرأى) العقلانى على وجه الإجمال وبين تيار (الصوفية) الروحى بإطلاق . كمـا يمكننـا أن نذهـب إلى أن الغزالى لم يكن هنا إلا تلميذاً أميناً على التقليد الراسخ الذى أرساه محمد عبده ؛ إذ جمع فى تأسيس المعرفة الدينية ، بـين العقـل وبـين الوجـدان ، علـى مـا سـاقه فـى (رسـالة التوحيد) (٥) .

ولا شك أن هذه العقلانية النقدية قد لعبت دوراً أساسيًا فى تكوين منهجه ورؤيته التجديدية للفكر الإسلامي، وبهذه العقلانية النقدية يرفض الشيخ الغزالى التقليد الأعمى ، سواء كان تقليداً للشرق القديم أم للغرب الجديد، و يقبل ما يقبل من الأفكار، ويدع ما يدع منها ، وفق ما يلـوح له من الأدلة والبراهين ، وما يرجع إليه من القيـم والموازيـن ، ولا تهولـه الأسمـاء ، ولا الألقـاب ،

وإنما يبحث عن الحق حيثما كان ، ومع أىٌ كان . وربما كان هـذا العقـل النـاقد الثـائر هـو الـذى جلب على الشيخ كثيرًا من المتاعب فى رفضه لآراء وأقوال يقدسها بعض الناس ، ويضفون عليها ما يشبه العصمة ، وفى نقده الحاد لبعض الأفكار التى يراهـا ضـارة بدعـوة الإسـلام ، سـواء مـن داخل الساحة الإسلامية أم من خارجها (٦) .

فالتصور المبدئى للعقل عند الشيخ الغـزالى، هـو تصـور "توليـدى" بمعنـى أن العقـل لا يدرك حقائقه مرة واحدة ، وإنما يسير على طريق المجهول ؛ إذ هو يدرك حقـائق مـن جملـة الحقائق المستورة، ثم ما يلبث أن يدرك حقائق أخـرى فـأخرى وهكـذا ، فـالمجهول القـابل للاكتناه هو عالمه ، وهذا العالم الرحب الممتد يشتمل على قطاعات ثلاث كبرى :

١- قطاع الكون بعناصره المادية وآفاقه وقوانينه .

٢- قطاع الشئون الدنيويـة البشـرية مما يتصـل بارتفـاق الإنســان مــن الطبيعــة ، وبالأنشطة الصناعية والزراعية والتجارية والحرفية ، وجملة الخبرات الإنسانية .

٣- قطاع العلاقات الإنسانية القائمـة علـى القوانـين النفسـية والخلقيـة والاجتماعيـة والسياسية التى تحكم الجنس الإنسانى فى حياته على الأرض .

ولا يتردد الغزالى فى بيان حدود العقل فى هذه القطاعات الثلاث .

فالكون مفتوح أمام العقل الإنسانى ، يستطيع أن يرتـاده مـن غـير حـدود ، وكذلـك الأمر فى الشئون الدنيوية البشرية ، أما قطاع العلاقات الإنسانية والقوانـين التـى تحكمهـا فله شأن خاص .

ففى المواطن التـى لم تدركهـا تعـاليم الديـن ينفـرد العقـل بالأحكـام . أمـا بعـد نـزول الشرائع وحيث تصل تعاليمها ، فإن الكلمة لها وحدها . وهو يعتقد أن جملة ما تقرر عنـد الأمم خارج دائرة الدين لا يضاد الدين ، وإن كان ثمـة أخطـاء تتحمـل البشـرية وزرهـا، وتحتاج إلى الدين للخلاص منها. كما أنه يتابع أبـا حـامد الغـزالى فـى مـا ذهـب إليـه فـى (المنقذ من الضلال) إذ اعتقـد أن جملـة مـا هـو مقبـول مـن الأمـور الأخلاقيـة والسياسـية

والاجتماعية ، عند مختلف الأمم مما لا يرتد مباشرة إلى الديـن ، إنما يرجـع فـى أصلـه إلى الشرائع السماوية القديمة. لكن القول الحاسم النهائى هنا ينبغـى أن يكـون للديـن (محمـد الغزالى دفاع عن العقيدة والشريعة : ١١٢-١١٣) . أما ما لم يرد فيه نص أو نص محكـم من أمور الشريعة ، فإن الشيخ الغزالى يلـتزم فيـه جـانب أهـل (الـرأى) فيقـر للعقـل بحـق استخدام ملكته الاستنباطية الاجتهاديـة فـى الاسـتدلال للأحكـام ، وفـى اسـتنباطها وفـق أصول الاجتهاد التى توجه فقه (أهل الرأى) .

أى أن للعقـل عنـد الغـزالى مجالـه الفـذ : علــوم الطبيعــة والكــون، وشــئون الدنيـا وصناعاتها، واستنباط الأحكـام الشـرعية التـى لم يـرد فيهـا نـص . أمـا مجـال الديـن فهـو القوانين والشرائع التى تحكم العلاقات الإنسانية ، والعقائد والعبادات التى تصل المخلوق بالخالق . والوحى هو الأصل الذى يرتد إليه كل شىء فى هذا المجال (٧)

وعندما نستعرض ملامح منهج الشـيخ الغـزالى نجـد أن مصـادر المعرفـة عنـده- التـى تمثـل الركيزة الأساسية لهذا المنهج- تتمثل فى الجمع بين القراءتين: قراءة الوحـى وقـراءة الوجـود ، حيث إن الوحى والوجود معًا من عند الله ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ وعندمـا أمرنـا الله تعـالى بالتعرف على الحق أمرنا بالقراءتين ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق.. اقرأ وربك الأكرم الذى علـم بالقلم..﴾ أى قراءة الوجود والواقع من حولنا ، وقراءة الوحى(٨) .

وهذا الجمع بين القراءتين هو المقياس الذى يحاكم به الشيخ كل نتاج فكـرى ، سـواء من المسلمين أو من غير المسلمين ، سواء أكان قديماً أم حديثاً ، فالإسلام يأمر بالقراءتين ؛ حيث تفسر كل قراءة الأخرى ، وحيث التطابق التام لوحـدة المصـدر وهـو رب العـالمين، فلا تناقض بين الكتابين : كتاب الله المسطور وكتابه المنظور ، ولم يقع تحريف ولا تخريـف، كما وقع فى الأديان السابقة ، عندما فارق الكتاب المسطور الكتاب المنظور ، فوقع ذلـك الصراع المضحك بين الدين والعلم ، أو بين الوحى والوجود ..

ويرى الشيخ الغزالى أن الاقتصار على قراءة الوحـى خطـر عظيـم وسـير بـالأمر علـى إحدى رجليه دون الأخرى ، وأن فصل الوجود عن الوحى والاكتفاء به أعظم من الأول،

فالحضارة لا تقوم إلا على القراءتين ، وسعادة الإنسان . لا تتم إلا بهما .

ولبناء المنهج الفكرى الذى يحقق هذه القـراءة الصحيحـة ، فإن الشـيخ ألـف المحاور الخمسة فى القرآن وبيّن لنا (كيف نتعامل مع القرآن) فى مدارسة مع الأستاذ عمر عبيـد حسنه ، وتجاوز التفسـير الموضعى والتجزيئى للقـرآن الكريـم الـذى شـاع عبر التـاريخ الإسلامى ، فكتب (التفسير الموضوعى لسور القرآن الكريم) ، كما كتـب بهـذه القـراءة أيضاً " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " فوضع أسس فهمه ومنهاج تعامله مـع الكتاب والسنة . وكان لابد أيضًا من قراءة صحيحة للكـون فـألف (تراثنـا الفكـرى فـى ميزان الشرع والعقل) [٩] .

وبالإضافة إلى هذه الركيزة الأساسية (الجمع بين القراءتين) . هناك عدة ركائز رئيسية أخرى تشكل فى مجملها معالم منهج الشيخ الغزالى وهى [١٠] :

* الاجتهاد الملتزم والتجديد المتأنى . ومن المعروف أن الاجتهاد ، إنما هو وليد التفاعل والتعامل مع الواقع ، ولا يمكن أن يكون إلا بممارسة العمل فى واقع الناس ، وهذا الـذى يجعل كثيراً من العلماء يظنون انغلاق باب الاجتهاد ، حيث غـاب التفـاعل المؤثـر واتخاذ القرار عن الواقع . ولكن الشيخ نزل يتعامل مع قضايا العصر تعامل المتفاعل مع الواقـع ، فوجد نفسه قد اجتهد فى أمور كثيرة ، كانت لـه فيهـا خيـارات فقهيـة ، ولكنـه كـان لا يخرج بالكلية عن التراث ، فرأينا له رأياً فى حد الردة ، ورأياً فـى وقـوع الطـلاق بمجـرد اللفظ بعد شيوع الاستهانة به بين المسـلمين ، ولـه رأى فـى مسـائل الميراث ، والوصيـة والزكاة ومصارفها ، وغير ذلك كثير مما يعد من اختيارات الشيخ ، التى لم يشذ باجتهـاده فيها عن الموروث الفقهى عامة ، وهذا الجانب من منهجه ، هو الذى جعله ينقل موضـوع الخطـاب الإسـلامى إلى قطاعـات لم تعهـده فـى المـاضى كالبيئـة ، ونقـل التكنولوجيـا ، والتصنيع ، وأمور الحكم ، والسياسة ، والاجتماع . وقد انتقد الشيخ الغزالى تضخم فقه العبادات وقال : إن فقه العبادات وجوانب من فقه المعاملات اتسع عندنا اتساعاً أكثر من اللازم ، وأن الاستبحار التشريعى فى أمور العبادات كان أكثر مما يطيقه الفـرد المسـلم أو المجتمع المسلم ، وأن قليلاً من هذا كان يكفى الناس .

وأشار إلى أننا مصابون بضمور فى بعض المعاملات ، فعندنا على سبيل المثال نحو اثنين وخمسين كبيرة من الكبائر لم توضع لها عقوبات ، كالتعامل بالربا والتعصب ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم والغش ، وغير ذلك مما يقع من مخالفات كثيرة، فالحدود التى وضعها الله تعالى لا تغنى عن تشريعات ضابطة فى الميدان الاجتماعى ، ومع أنها عقوبات تعزيرية لكنها لابد من تنفيذها بصورة محكمة .. كما أننا لا نزال فقراء جدًا فى الفقه السياسى بمعناه الإدارى والدستورى (١١) .

* الانطلاق من أن خصائص كلمة الله عامة للبشر كلهم فى كل زمان ومكان وشاملة لحياة الإنسان ، فى المادة والروح والعقل . وتخاطب كل الأشخاص ، وكل المعتقدات ، ومن هذه النظرة فهم الغزالى (القرآن) وفهم كيف نطبقه على الواقع ، وهذا الجانب أساس فى فهم ما ذهب إليه فى شأن الأخلاق ، وما ذهب إليه فى شأن المرأة ، وما ذهب إليه فى شأن الفقه الإسلامى ، وكان وراء قبوله ورده لنتاج الفكر الغربى ، وقبوله ورده لنتاج الفكر الإسلامى ، فكل ما يؤدى إلى عالمية كلمة الله– إن صح التعبير – قال به ، وكل ما يؤدى إلى شخصنة الدعوة فى شعب دون آخر أو زمن دون زمن ، رفضه ونقده، مرة باللين ومرة بالحدة التى كان يسميها (حرارة الدعوة) .

* التفرقة بين القطعى والظنى ، وتحديد مساحة كل منهما ، فكان يقبل النقاش والحوار داخل المذاهب الإسلامية ، أو داخل الفكر البشرى ما دام فى نطاق الظن ، وما يمكن أن يكون فيه من رأى ، ولا يقبل النقاش إن كان الأمر على سبيل القطع الذى لا يمكن فيه الخلاف ، ومن ثم رأيناه يتمسك بالإجماع الصحيح فى كثير من مسائل الفقه ، حيث يحول الإجماع النصي – وإن كان ظنيًا – إلى قطعى ، وهذا الجانب من منهجه يفسر كثيراً مواقفه من جزيئات الفكر الإسلامى فى تراثه أو حاضره ، ومواقفه من جزيئات فى الفكر الغربى أو الإنسانى بعامة (١٢) .

ومن ركائز منهج الغزالى أيضاً : الأخذ بالكتاب والسنة معًا ، فالقرآن هو المصدر الأول المقطوع بثبوته وتواتره اليقينى ، والسنة هى البيان النظرى والتطبيق العملى له ، والبيان لا يجوز أن يناقض المبين ، لهذا يرفض الشيخ كل سنة تناقض القرآن ، ولا يتكلف

فى تأويلها ، ويقول : إذا كانت مخالفة الراوى الثقة من هو أوثق منه، وإن كان عدلاً ضابطاً يجعل الحديث شاذًا ، أى تنقله عن دائرة القبول إلى دائرة الرفض ، أو من دائرة الصحة والحسن إلى دائرة الضعف ، فكيف إذا خالف الحديث القرآن ؟ بل قد يعد السنة المناقضة للقرآن الكريم مكذوبة على النبى ﷺ (١٣) .

وبناء على منهجه هذا رجح رأى الحنفية فى قتل المسلم بالكافر الذمى، قصاصاً إذا قتله عمداً ويقول : (إننا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن ، وحديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة ، وإن صح سنده ، وحديث (لا يقتل مسلم بكافر) معلول بمخالفته للنص القرآنى ﴿أن النفس بالنفس﴾ (المائدة ٤٤) .

ويضيف الشيخ : (وعند التأمل نرى الفقه الحنفى أقرب إلى العدالة ، وإلى مواثيق حقوق الإنسان ، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد ، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والإيمان ، لو قتل فيلسوف ، كانس طريق ، قتل فيه ! فالنفس بالنفس ..!! وقاعدة التعامل مع مخالفينا فى الدين ومشاركينا فى المجتمع أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، فكيف يهدر دم قتيلهم؟) (١٤) .

ووفقاً لهذا المنهج أيضًا نجد الغزالى يقول فى التسوية فى مقدار الدية بين الرجل والمرأة "إن الدية فى القرآن واحدة للرجل والمرأة ، والزعم بأن دم المرأة أرخص وأن حقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب العزيز ، فإن الرجل يقتل فى المرأة كما تقتل المرأة فى الرجل ، فهما سواء ، فما الذى يجعل دية دون دية ؟ " فالغزالى فى الموضعين السابقين رد العمل بالحديثين حديث (لا يقتل مسلم بكافر) وحديث (دية المرأة على النصف من دية الرجل) لمعارضتهما لظاهر القرآن الكريم ، الذى يقضى بالمساواة ، ولم يتأولهما على نحو ما فعله الحنفية فى الحديث الأول .

وانسياقاً مع هذا المنهج رد حديث " بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها " الذى أخرجه الطبرانى لمعارضته لقوله تعالى : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ (١٥) .

ومن معالم منهج الشيخ الغزالى أخذه بالمصالح المرسلة بشروطها المعتبرة شرعاً ، وأولها أن لا تعارض نصاً صريحاً . فيقول : " إن المصلحة لابد من رعايتها ، ومعنى النص الشرعي أن المصلحة قد ارتبطت به أبداً فهو دليلها وضمانها ، وأى تعطيل له فهو خدش للمصلحة أو تطويح لها .

والفقه الصحيح أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص ، وأن نجتهد فى تفهمها ، ثم فى تحقيقها ناشدين إرضاء الله وخير الأمة ". مشيراً إلى أن المساحات التى يمكن إيجاد أحكام لها على أساس المصلحة المرسلة كثيرة فى العقوبات التعزيرية ، وفى أسلوب الحكم.

وفي ضوء منهجه هذا يمكن فهم بعض ترجيحاته كقوله بأن الجهاد دفاعى وليس هجوميًا، وقبوله بمبدأ الديمقراطية ومناداته بها ، إذا كان البديل الآخر هو الاستبداد وحكم الفرد، وقبوله ببعض جوانب الاشتراكية، متى كان البديل الآخرهو الاستغلال[١٦].

وقد كانت المعاصرة هى السمة الرئيسية التى غلفت كل هذه الركائز التى اعتمد عليها الغزالى فى هذا المنهج ، وانطلاقاً من هذه المعاصرة كافح الغزالى بفكره وقلمه فى جبهتين واسعتين .

الأولى : جبهة الخصوم الكائدين للإسلام الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادة الحياة من جديد. بعض هؤلاء من خارج الإسلام. ومن خارج أرضه من القوى العالمية التى تخافه أو تبغضه من اليهودية والصليبية والشيوعية والوثنية ، وغيرهم ممن اختلفت دياناتهم، واختلفت طرائقهم، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام ، والبعض الآخر– للأسف الشديد – من داخل أرض الإسلام ، بل من أبناء المسلمين أنفسهم ، ولكنهم لا يضمرون للإسلام إلا شرًا ولا لدعاته إلا عداوة ولا لشريعته إلا تنكراً..

والثانية : جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه ، هؤلاء الذين سماهم الشيخ (الدعاة الفتانين) الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات وبالمختلف فيه عن المتفق عليه،

وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب ، وهؤلاء مشدودون إلى جدليات الماضى السحيق ولا يدركون ما جدَّ حولنا ، ولا الطفرات الهائلة التى قفزت بها الحياة على أرضنا [١٧] .

ومن ثم فإن تجديد الفكر الإسلامى فى تجربة الغزالى لا يقتصر على مجال واحد ولا يتم فى جبهة واحدة ، وإنما كما قال : " إن تجديد الإسلام ليس نشاطاً فى ميدان واحد بل فى ميادين شتى ، وليس صموداً أمام عدو واحد ، بل أعداء كثيرين ، لعل أشدهم بأساً يكمن فى داخل بلادنا ! " [١٨] .

وقد اقترح عشر مبادئ لترشيد مسيرة الإصلاح وتجديد الفكر الإسلامى ، وضمنها فى كتابة " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" معتبرها إضافة إلى التعاليم العشرين التى وضعها حسن البنا لترميم العالم الإسلامى ، وهذه المبادئ العشر هى :

١- النساء شقائق الرجال ، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وللنساء - فى حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة فى بناء المجتمع وحمايته .

٢- الأسرة أساس الكيان الخلقى والاجتماعى للأمة ، والمحضن الطبيعى للأجيال الناشئة ، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما ، والرجل هو رب الأسرة ، ومسئوليته محدودة بما شرع ا لله لأفرادها جميعاً .

٣- للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم ا لله له ، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض ، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها .

٤- الحكام - ملوكاً كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم ، يرعون مصالحهم الدينية والدنيوية ، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ومن رضا السواد الأعظم بها ، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهاً ، أو يسوس أمورها استبداداً ...

٥- الشورى أساس الحكم ، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها وأشرف الأساليب ما تمحض لله وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا .

٦- الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التى قررها الإسلام ، والأمة جسد واحد ، لا يهمل منها عضو ، ولا تزدرى فيها طائفة ، والأخوة العامة هى القانون الذى ينظم الجماعة كلها فرداً فرداً ، وتخضع لها شئونها المادية والأدبية .

٧- أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة الإسلامية ، وذود المفتريات عنها ، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا ، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة فى الشكل اللائق بمكانتها الدينية .

٨- اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء ، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس .

٩- علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنسانى المجرد .

١٠- يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف دينها ومذاهبها - فى كل ما يرقى ماديًا ومعنويًا بالجنس البشرى ، وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التى توارثوها عن كبير الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام[١٩].

وفى كتابه " تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل " أعاد الغزالى نشر هذه المبادئ العشرة ، ثم أضاف إليها ضرورة إنشاء جهاز يعاون فى تحقيق الإصلاح الفكرى ، على أن يكون هذا الجهاز ذا نشاط مزدوج ، وذلك على النحو التالى:

" - النشاط الأول يقوم على الأسس الآتية :

(أ) سبر الارتقاء الثقافى والإحاطة بالآماد التى بلغها غيرنا حتى نعرف من نخاطب؟ وماذا نقول ؟

(ب) إدراك المستوى العمرانى والصناعى والحضارى الذى يسود العالم من حولنا ، فإن من الهزل أن تعرض الإسلام أممٌ متخلفة ، ينظر إليها غيرها شزرًا ، ولا تستطيع أن تساند حقها بدعائم مادية أو علمية .

(جـ) دراسة التيارات السياسية والقوى العسكرية التى حظى بها غير المسلمين ، وتقدير ما تقدمه للأديان والمذاهب الأخرى من دعم ، ووضع ذلك تحت أنظار المسئولين.

- أما النشاط الثانى فهو داخلى يتحرك فى دار الإسلام ويقوم بما يأتى :

(أ) محاربة الغش الثقافى والانحراف الفكرى اللذين أبعدا الأمة الإسلامية عن كتاب ربها وسنة نبيها ، وجعلاها صورة مشوهة للدين الحق ، وأعجزها عن نصرته ..

(ب) إعادة بناء الأمة الإسلامية على أساس أن الوحى حياة ، وأن دراسة الكون أهم ينابيع الإيمان ، وأن حسن استغلاله سلاح اقتصادى وعسكرى خطير ." [٢٠].

وفقًا لهذا المنهج الذى أشرنا إلى أهم معالمه سار الشيخ الغزالى بخطوات ثابتة فى مشروعه الفكرى الكبير داعية ومجدداً ومصلحاً يعرض رؤيته ببساطته المعهودة كلما تطلب الموقف ذلك ، وأيًا كانت المناسبة ، فقد خاض بفكره وقلمه ورؤيته التجديدية مختلف المجالات من عبادات ، ومعاملات ، وعقوبات، وأحكام أسرة ، ونظام سياسى ، وفنون ، وعلاقات دولية ، وحقوق إنسان ، ولباس وزينة وقضايا متعلقة بالمرأة .. إلخ . وهو فى كل ذلك ينطلق من يقينه الثابت بأن الإسلام (دين الحياة) .

ولكن سوف نتوقف عند بعض المجالات الرئيسية التى تجسد فكرة الغزالى ورؤيته كأحد أبرز أعلام مدرسة التجديد الإسلامى الحديثة . وهذا موضوع الفصول الثلاثة التالية من هذا الكتاب .

هوامش الفصل الثانى

(معالم منهج الغزالى فى تجديد الفكر الإسلامى)

١- فهمى جدعان : "العالم بين حدين .. نظرة فى المبادئ الموجهة للتجربة الغزالية" فى : (العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى) ، ص ١٣٥-١٣٧.

٢- المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

٣- محمد وقيع الله ، مرجع سابق ، ص ١٠٥-١٠٦ .

٤- د. فهمى جدعان ، ص ١٣٦ .

٥- المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

٦- د. يوسف القرضاوى : " الشيخ الغزالى كما عرفته" القاهرة : دار الوفاء، ١٩٩٧، ص٨٥ .

٧- د. فهمى جدعان ، ص ١٣٧-١٣٩ .

٨- لمزيد من التفاصيل راجع : محمد أبوالقاسم حاج محمد "العالمية الإسلامية الثانية بيروت : دار المسيرة ص ٧٦-٨٤ .

٩- د. على جمعة : " الشيخ الغزالى ورؤيته المنهجية " فى (العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى) ص٣٥-٣٦ .

١٠- المرجع السابق ، ص ٣٥ .

١١- محمد الغزالى : " مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية " القاهرة : دار نهضة مصر ، ص ١٢٣ .

١٢- د. على جمعة ، ص ٣٦- ٣٧ .

١٣- د. على الصوا، "الشيخ الغزالى ومنهجه فى الفقه" فى : (العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى) ص١٦١ .

١٤- محمد الغزالى : " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " القاهرة : دار الشروق ١٩٨٩ ، ص١٨ .

١٥- د. على الصوا ، ص ١٦١- ١٦٢ .

١٦- المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

١٧- د. يوسف القرضاوى: "الغـزالى رجـل الدعـوة" فـى" العطـاء الفكـرى للشـيخ محمـد الغـزالى" ص ٢١٩.

١٨- محمـد الغـزالى : " تراثنـا الفكـرى فـى مـيزان الشـرع والعقـل " فيرجينيـا : المعهـد العـالمى للفكـر الإسلامى ، ١٩٩١ م ص ١٠ .

١٩- محمد الغزالى : " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين " ص ٢٢٠-٢٢١ .

٢٠- محمد الغزالى : " تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل " ص ١٢ .

الفصل الثالث

الغزالي وتجديد الفكر الإسلامي في الميدان السياسي

لا شك أن بين التجديد والسياسة ارتباطاً وثيقاً ، فإذا كان التجديد فى جوهره ليس إلا إصلاحًا وتقويمًا ، فإن السياسة فى معناها ومبناها تعبر عن القيام بالأمر بما يصلحه[1] .

وقد شغل الجانب السياسى حيزاً كبيراً من اهتمام الغزالى ومشروعه الفكرى ، وهذا يتسق مع انتمائه إلى مدرسة التجديد والإحياء الحديثة التى تأسست على يد الأفغانى ومحمد عبده ، فكل أجيال هذه المدرسة لم ينفصلوا عن الهم السياسى .

بل إن الغزالى ينطلق فى هذا الاهتمام من رؤية إسلامية سليمة ، فبعيداً عن محاولات علمنة الإسلام من الداخل من خلال التأكيد على الفصل بين السياسة والدين، نجد أن اهتمام الفكر الإسلامى فى تاريخه الطويل بالسياسة اهتماماً كبيراً ، ولكن أغفل الباحثون المعاصرون هذا الاهتمام وانساق كثيرون منهم إلى أحكام معممة لا تقوم على منهج علمى سليم ، مؤداها أنه لا توجد سياسة فى الإسلام ، والعجيب أن أشهر كتاب روج لهذه المقولة وهو : " الإسلام وأصول الحكم " للشيخ على عبد الرازق ، لم يرجع إلا لمصدرين فقط من مصادر التراث السياسى الإسلامى هما : مقدمة ابن خلدون ، و" العقد الفريد " لابن عبد ربه .

فى حين أن باحثًا شابًا هو الدكتور نصر عارف استطاع بجهد فردى أن يتوصل إلى ثلاثمائة وسبعة (٣٠٧) مصادراً تراثياً مباشراً فى علم السياسة ، أى حوالى ٧٦٪ من مصادر التراث السياسى الإسلامى ، واكتشف أن ما تم التعرف عليه ودراسته من مصادر التراث الإسلامى عند جميع المؤلفين المعاصرين لم يتجاوز ١٥٪ من هذه المصادر[2] .

ومن ثم يأتى اهتمام الشيخ الغزالى بالجانب السياسى فى محله ليلبى احتياجاً حقيقيًا لبيان معالم الفكر الإسلامى المعاصر فى هذا الميدان، فهو القائل: "إننا لا نزال فقراء جدًا فى الفقه السياسى بمعناه الإدارى والدستورى ، وهذا قد يدعو إلى شىء من التخبط فى الرؤية السياسية ؛ لأنها لم تزل عبارة عن مبادئ عامة ، لم تترجم تاريخيًا إلى فقه وبرامج تشكل خصوبة فى التصور عند الفرد المسلم يمكن أن يتعامل مع الحياة من خلالها " [3] .

ومن بين الكتب العديدة التى ألفها الغزالى يمكن اعتبار عشرة منها كتباً سياسية

خالصة ، أما بقية أفكار الشيخ السياسية فقد توزعت على مختلف كتاباته، وقل أن تجد له كتاباً لا يتعرض لموضوع السياسة . وبقدر ما أكثر الشيخ من الإنتاج الفكرى ، كانت أفكاره السياسية تتوزع وتتداخل مع موضوعات أخرى ، محققة بذلك نوعًا رائعًا من التلاحم ما بين الشأن السياسى والاقتصادى والثقافى والتربوى والروحى . وقد كان طبيعيًا أن تأتى أفكار الغزالى بهذه الصورة الكلية ؛ إذ إنها منبثقة عن إطار عقائدى ومعرفى أشمل هو الإطار الإسلامى (٤) .

ونظراً للترابط المعروف بين النظامين الاجتماعى والسياسى، نجد أن الشيخ الغزالى قلما يفصل فصلاً حاسماً بين هذين النظامين ، فقد يركز على الجانب الاجتماعى كما هو الحال فى كتابى:" الجانب العاطفى من الإسلام" و"جدد حياتك" ولكنه لا يخلى مثل تلك الكتب من إشارات إلى أثر الدولة أو العامل السياسى فى حياة الناس. وأما عندما يتناول الجانب السياسى الخالص فإنه يصله بخيوط قوية بمفاهيم الإسلام الاجتماعية ؛ ولذلك فإننا قد نجد فى خضم تحليلاته السياسية تصورات أخلاقية خالصة . مثل كلمة (عفاف) فى كتب الغزالى السياسية ، كما أنه يربط بعض مفاهيم الدين المركزية مثل "الورع" و"التقوى" و"الجزاء الأخروى" بتفاصيل ممارسات العمل السياسى (٥) .

" لقد كان الشيخ الغزالى يحاول دائماً رفع المعالجة السياسية إلى أفق الوضاءة الروحية. وهذا هو المنهج الأسد ؛ لأن السياسى الإسلامى لا يؤتى ثماره ناضجة إلا فى هذا الأفق"(٦) .

وقد بدأ اهتمام الغزالى مبكراً بالجانب السياسى فكتابه "الإسلام والاستبداد السياسى" كان من أوائل كتبه ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى معتقل الطور عام ١٩٤٩م . فهو يعشق الحرية ويكره الاستبداد بكل صوره ولو تغطى بغطاء الدين، بل يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطراً من غيره .

ومن هذا المنطلق قسا على بعض مراحل التاريخ الإسلامى عندما رأى أن الشورى معطلة وأن الخلافة تنتقل بحكم الوراثة إلى صبى لم يبلغ الحلم (!) .

ورفض بحسم قول أبى بكر بن العربى فى كتابه : العواصم من القواصم" أن البيعة

تنعقد باثنين أو بواحد ، واعتبر هذا القول "كلامًا فراغًا" [٧] وهذا النقد الذى وجهه الغزالى لإحدى مقولات الفقه السياسى التقليدى ، يدعونا إلى إعادة النظر فى بعض المقولات الشائعة فى هذا الفقه السياسى ، خاصة وأن انهيار نظام الخلافة قد أظهر ثغرات وشروخ عميقة فى قواعده النظرية [٨] .

وانطلاقاً من هذه الرؤية التجديدية ، لم ينشغل الغزالى كثيراً بإعادة إنتاج الفكر الإسلامى الموروث فى هذا الميدان ، وإنما اهتم بمعالجة القضايا التى طرحها عصره وعلى هذا المنهج استمر يقاوم الاستبداد السياسى بكل صوره وينتصر لحرية الجماهير [٦] . ومن أقواله التى تثبت هذا الموقف : " أن الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهى بالناس إلى عبادة ربهم وحده، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية سياسية عمياء " [٩] .

وظل فى كتاباته وخطبه يعمل على تصحيح مفهوم الشورى باعتبارها فريضة وليس مجرد فضيلة ، وملزمة لا مجرد معلمة، فقال : " أخطأ من المفسرين من وهم أن الشورى غير ملزمة، فما جدواها إذن ؟ وما غناؤها فى تقويم عوج الفرد إذا كان من حقه ألا يتقيد بها؟ وأين فى حياة الرسول وسيرة خلفائه ما يدل على أن الحاكم خرج على رأى مستشاريه ومضى فى طريقه وحده ؟ " [١٠] .

ورد على الحجج التى ساقها من قال : إن الشورى معلمة وليس ملزمة ، ومنها الاستشهاد بموقف أبى بكر فى حرب الردة واعتراض بعض الصحابة عليه فى قتاله من نطق بالشهادتين – ومن بينهم عمر بن الخطاب – وإصرار أبى بكر على موقفه ، ويمينه التى أقسمها على قتالهم إلى النهاية ..

وفى رده على هذه الحجة أوضح الشيخ الغزالى أن هذا الاستشهاد " يرد فى غير موضعه، فقصة أبى بكر مع المرتدين ومانعى الزكاة لا تعنى إلا أنه عرف الحق قبل عمر ، ثم ما لبث أن أقنع به صاحبه فأيد وجهة نظره ، واتفقا جميعاً على تنفيذها، وخطأ عمر فى موقفه ابتداء مع المرتدين كخطئه بعد وفاة الرسول حين أنكر موته وتوعد من يقول به ، ثم ثاب إلى الحقيقة التى قررها أبو بكر فى يقين وتؤدة ، والديمقراطية الحديثة تخضع

الحاكم لرأى الكثرة وتمنع السلطة التشريعية من التدخل فى الشئون التنفيذية المحضة . فإن كان الذين يريدون إطلاق سلطة الحاكم عن دائرة الشورى يعنون ذلك فلا حرج عليهم ، وإلا فكلامهم لغو لا يعتد به " [11] .

وهنا نود أن نتوقف عند نقطة مهمة ، وهى أن البعض قد عتب على الغزالى بسبب دعوته إلى الديمقراطية ، معتقداً أنه يستخدم المفاهيم الغربية على حساب المفاهيم الإسلامية (الشورى) ، غير أن الغزالى لم يدع إلى الديمقراطية كبديل للشورى ، وإنما قدمها كوسيلة لتحقيق الشورى ، فهو –فى الواقع – دعا إلى الأخذ بالمؤسسات التى أفرزتها تجربة الديمقراطية فى الغرب (مثل البرلمان والأحزاب) للاستفادة منها فى تطبيق الشورى فى واقعنا ، باعتبار أن "الديمقراطيات الغربية إجمالاً وضعت ضوابط محترمة للحياة السياسية الصحيحة ، وينبغى أن ننقل الكثير من هذه الأقطار لتسد النقص الناشئ عن جمودنا الفقهى قروناً طويلة .. والنقل والاقتباس هو فى خدمة مبادئ مقررة عندنا ابتداء ، أى أننا ما خرجنا عن خطنا العتيد ، ولا ارتضينا أهدافاً أخرى"[12].

غير أن مجرد اقتباس هذه المؤسسات أو وسائل الديمقراطية الغربية لا يكفى –فى رأيه– وإنما يجب أن يسبق ذلك خطوة أهم " قبل الاقتباس من أى نظام عالمى للوسائل التى تحقق قيمنا الفريدة . يجب إحداث تغييرات جذرية فى الطريقة التى نحييها بها .. ومن المستحيل أن تصلح الأوضاع السياسية للمسلمين إذا كان الدين فى وعيهم يهتم بفقه الحيض والنفاس ، ولا يكترث بفقه المال والحكم ، بل إن مستقبل المسلمين كله سيخضع للحديث الصحيح "لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع" [13] .

فقد طالب الغزالى بالاقتباس من النظم الحديثة كالديمقراطية ما يدعم مبدأ الشورى ويجعله قابلاً للتطبيق العملى فى واقع المسلمين ، مؤكداً أن الأمة وحدها هى مصدر السلطة، والنزول على إرادتها فريضة، والخروج على رأيها تمرد.. ونصوص الدين وتجارب الحياة تتضافر كلها على توكيد ذلك [14].

واعتبر أن طغيان الفرد فى أمة جريمة غليظة ، وأن الحاكم لا يستمد بقاءه المشروع إلا إذا كان معبراً عن روح الجماعة ومستقيماً مع أهدافها ، فقال : إن "الحكام – ملوكًا كانوا أم رؤساء – أجراء لدى شعوبهم ، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية ، وجوهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهًا ، أو يسوس أمورها استبدادًا [١٥] .

ودعا الشيخ إلى بحث أسباب الضمور فى الجوانب السياسية والإدارية ، مرجعاً ذلك إلى انفصال القيادة الفكرية عن القيادة السياسية ، مؤكداً أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتورى ، وإنما كانت تعاليمه ومبادئه تدعو إلى الشورى والرأى الجماعى .

وعالج قضية الفساد السياسى بخاصة فى كتابه "هموم داعية" باعتباره مرضًا قديمًا فى تاريخنا ، وانتقد بشدة الحكام الذين حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة.. لأن أهواءهم طافحة وشهواتهم جامحة . " قد عاصرت حكامًا تدعو عليهم الشعوب ، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها .. انتفع بهم الاستعمار الشرقى والغربى فى منع الجماهير من الأخذ بالإسلام. والاحتكام إلى شرائعه" .

وقد صحح الغزالى المفاهيم المغلوطة التى تم الترويج لها حول الإسلام والسياسة ، بدءًا من كتاب الشيخ على عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" الذى اعتبر فيه الخلافة والقضاء وغيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة مجرد خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها ، ثم جاء بعده خالد محمد خالد ليردد هذه المضامين فى كتابه "من هنا نبدأ" ، وقد تصدى الغزالى لهذه المفاهيم المغلوطة وصححها فى كتابه "من هنا نعلم" ؛ حيث أعاد تعريف المصطلحات المستخدمة فى هذا الجدال ، فأكد أن نظام الكهنوت أو طبقة رجال الدين لا وجود لها فى الإسلام . "فليست لحاكم ما فى الإسلام قداسة ولا صفة إلهية خاصة.. وليس الدين احتكارًا على طائفة دون أخرى" [١٦] .

ونبه إلى المنهج المقلوب الذى اتبعه خالد محمد خالد– فى سلب حق الإسلام فى الحكم، فيقول فى كتابه (من هنا نعلم) : " إن الناس يعيرون بتركهم للدين وخروجهم

على أحكامه .. بيد أن الشيخ خالد يعير الإسلام بخروج البعض عليه ، ويريد ليحمله تبعة أعمالهم . فإذا ضل الحجاج - يقصد الحجاج ابن يوسف الثقفي - فالعلة في نظره أن التشريع غامض ، لا أن الحجاج حاكم ساقط " .

واستمر الغزالى يرد على الحجج التى ساقها خالد حجة بحجة وفق منطق واضح متسق، فمثلاً يقول خالد : " إن الدولة عرضة للنقد والتجريح وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار فكيف نعرض الدين لهذه المهانة " .

فيرد الغزالى - فى الكتاب نفسه - قائلاً: " إن الدولة عرضة للنقد والترجيح، فإذا تأسست على الدين ، فأى ضير على الدين أن يكون فى حال النصر زمامًا يمنع المنتصر من الطغيان ، وفى حال الهزيمة حافزًا يغرى بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان " .

ويضيف الغزالى : " لنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائها فهل ينقلب الحق باطلاً ؛ لأنه انخذل فى معركة ؟ أى عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التى تنافح عنه ؟ وقديمًا هُزم الدين وقتل فى هزيمته صديقون وأنبياء " .

ويرى الشيخ الغزالى أن تكوين الأحزاب السياسية فى النظام أمراً مباحاً ، بل إنه تمنى لو أن المعارك السياسية التى شهدها تاريخنا الإسلامى قد تمت إدارتها بالشكل الديمقراطى الذى يستخدم اليوم فى الدول الديمقراطية ، فيقول فى كتابه " أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية " : حدثت نفسى ماذا لو أن النزاع بين على ومعاوية بُت فيه باستفتاء شعبى، بدلاً من إراقة الدم؟ . ولو سلمنا أن الأسرة الأموية تمثل حزباً سياسياً له مبادئ معينة ، فماذا عليها لو تركت آل البيت يكونون حزباً آخر يصل إلى الحكم بانتخاب صحيح أو يحرم منه بانتخاب صحيح ؟ " [١٧] .

ثم يضيف - فى الكتاب نفسه - : " قال لى متعالم كبير: إن الانتخابات بدعة !
قلت له : وسفك الدم واستباحة المحرمات هو السنة ؟ " ! [١٨] .

وأولى الغزالى قضية الحريات السياسية اهتمامًا ملحوظًا فى كتبه ومقالاته ، وتناول هذه القضية باستفاضة فى كتابه (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم

المتحدة) مؤكداً أن الحرية السياسية تعنى فى عصرنا أمرين :

" أ- حق كل إنسان فى ولاية الوظائف الإدارية صغراها وكبراها ما دام بكفايته أهلاً لتوليها".

ب- حق كل إنسان أن يبدى رأيه فى سير الأمور العامة، وتخطئتها أو تصويبها وفق ما يعتقد " (١٩) ويرى أن الحريات السياسية تقوم علـى أن المناصب المختلفة وسائل لخدمة المجتمع ، وأن من يشغلها موضع الرقابة الدقيقة من جمهور الأمة . وأن الإسلام لا يفهم وظائف الحكم إلا داخل هذا النطاق المحكم : (رئيس الدولة فمن دونه من الموظفين أشخاص تختارهم الأمة ولا يفرضون عليها أبداً . وهى تختارهم لما تتوسمه فيهم من صلاحية لإدارة الأعمال التى تسند إليهم . وهم باقون فى وظائفهم ومستحقون أجرتها ما بقيت لهم هذه الصلاحية ، وإلا نُحُّوا عنها وخلفهم من يقدر على أعبائها " (٢٠) .

ولأن السياسة لا تنفصل عن الاقتصاد ولا يمكن فهم النظام السياسى بعيداً عن النظام الاقتصادى، فإن الشيخ قد اهتم بالجانب الاقتصادى فى وقت مبكر ، بل إن أول كتاب له كان بعنوان "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" والذى صدر عام ١٩٤٧م .

وفى هذا الميدان قدم الشيخ آراء أصيلة حول تقسيم الثروة فى المجتمع . وقد كان الرأى الشائع حينها أن الإسلام يقر التفاوت الهائل فى توزيع الثروات ، ويحابى الأغنياء ، ويسكّن ضغائن الفقراء المغبونين ، هذا الرأى التبسيطى تناوله الغزالى بالنقض فى كتابه "الإسلام والمناهج الاشتراكية" ، ثم قارن بين حلول الإسلام للمشكل الاقتصادى ، وحلول المدارس الاشتراكية على اختلاف منازعها (٢١) ، ومع أن آراء الغزالى الاقتصادية قد تشعبت لتشمل قضايا المساواة والحرية والكرامة الإنسانية إلا أن هناك معالم رئيسية يمكن التوقف عندها لبيان رؤية الغزالى فى هذا الميدان، ومن أبرزها :

١- حق العمل الذى يكتسب فى ظل النظام الإسلامى أهمية خاصة ؛ إذ إنه الحق الذى تترتب عليه حقوق الملكية ، وهو كذلك هدف مقصود من غايات الخلق وتكليف من تكاليف الرسالة ، ولحكمة عليا جعل الإنسان يكدح لابتغاء الرزق : ﴿ ومَا جَعَلناهُم جَسَدا لا يأكُلُون الطعَامَ ومَا كـانُوا خـالدين ﴾ (الأنبياء-٨) ويقرر الإسلام لكل أفراد

المجتمع حق اختيار نوع العمل الذى يوافق مواهبهم ، ونوع التدريب الذى من حقهـم أن يحصلوا عليه ، بيد أن العمل قد قيد بأطر تشـريعية تمنـع الغـش فيـه والسـرقة والاحتكـار والاستغلال وسائر أنواع الكسب الحرام .

٢- حق الأجر : ويقرر الغزالى أن العمل سلعة مثله مثل أى سـلعة أخـرى . والسـلع جميعاً تترك فى ميدان السوق لقانون العرض والطلب ، وقلما تتدخل الدولـة لتحديدهـا : ويرى أن الموظفين والعمال أصحاب خبرة ودراية ومهـارة ، وأن الخدمـات التـى يؤدونهـا للمجتمع لا تعدو أن تكون هى الأخرى سلعاً يرتفق الناس بها، ولا يستغنون عنها . فهـل تترك هذه المواهب والمنـافع المقرونـة بهـا فـى مهـب الريـح ترتفـع وتنخفـض دون ضـابط عدل؟! ويجيب بالنفى موضحاً أن الجهد البشرى الذى يبذله موظف أو عامل فى إنجاز أمر من الأمور ، أو إتقان سلعة مـن السـلع ، لـه عـوض مـالى يمكـن جعلـه مقبـولاً لـه ، فـإذا تدخلت ظروف مصطنعـة لبخس هـذا الثمـن أو المغـالاة فيـه، فـإن العدالـة التـى قررتهـا الشريعة فمنعت المتبايعين فى الأسواق عن التغرير والخـداع والاحتكـار ، تنتقـل هنـا لمنـع كذلك الغلو والحيف ، أو الجشع والانكسار . فالدولـة الإسـلامية ملزمـة- إذن- بحمايـة العمال ضد تغول الرأسماليين الذين أثبت لهم التاريخ طبيعة الجشع والاستغلال .

٣- حق الملكية : والملكية تثبـت عـادة اكتسـاباً عـن العمـل، ولكـن الإسـلام لا يمنـع وسائل التملك الأخرى كالميراث والهبة ، ولكن يبقى العمل هو وسيلة التملك الأساسـية، ومن هنا تنـتفى وسائل السخرة والاستغلال والاحتكار والربا..إلخ . وقد احترم الإسـلام حـق الملكيـة ووضـع الضوابـط الكثيرة لحمايتـه وتعزيـزه . " إلا أنـه أثـقل هـذا المبـدأ بالواجبات الاجتماعية النبيلة حتى يكون المال فى يد صاحبه مصـدر خـير لـه وللنـاس " ، ففيه حق للفقراء المحرومين من الزكاة ، وفيه حقوق أخرى للمجتمع غير الزكاة (٢٢).

كما يقرر الغزالى أن الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التى قررهـا الإسـلام ، والأمة جسد واحد لا يهمل منـه عضـو ، ولا تـزدرى فيـه طائفـة ، والأخـوة العامـة هـى القانون الذى ينتظم الجماعة كلها فرداً فرداً ، وتخضع له شئونها المادية والأدبية (٢٣) .

واستمر الغزالى يوضح موقف الإسلام من القضايا الاقتصادية المعاصرة فى كتابيه اللذين سبقت الإشارة إليها ، وفى كتاب : " الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين " . وفى بعض الكتب الأخرى ، مؤكداً دعوة الإسلام الخالدة إلى العدالة الاجتماعية ورافضاً لتمكين الأغنياء من امتصاص دم الفقراء ، وموضحاً حقيقة الفكر الإسلامى فى الميدان الاقتصادى بعيداً عن التأويل الاشتراكى للإسلام أو التفسير الرأسمالى له .

وهنا نقف عند معالجة الغزالى لموقف الإسلام من قضية الغنى والفقر ، فقد صحح كثيراً من المغالطات التى أثيرت حول موقف الدين الإسلامى من هذه القضية ، فرفض الفكرة التى تقول : إن الله جعل الأغنياء أغنياء هكذا ؛ لأن الله أحب لهم أن يستمتعوا بنعمة الغنى ، وأن الفقراء فقراء هكذا ؛ لأنه شاء لهم أن يشقوا بمصيبة الفقر . وأنه فاوت بين الناس ، فخلق المكثرين والمقلين ، قصداً إلى إقامة فوارق مادية طبيعية بينهم ، على أساس التفاوت فى ثرواتهم ؛ وأنه لذلك فضل البعض على البعض فى الأرزاق والمعايش . رفض هذه المقولات مؤكداً " أن الأغنياء - فى نظر الإسلام - لا يجوز أن يبقى لهم غناهم كاملاً ، وأن الفقراء لا يجوز أن يبقى عليهم فقرهم كاملاً . ولابد أن يشترك هؤلاء وأولئك ، فى إقامة مجتمع لا يوجد فيه الرجل المترف والرجل المحروم [٢٤] .

وقد رد على الحجج التى ساقها البعض لتبرير الحرمان والهوان الذى يلقاه الفقراء .

ومنها القول بأن الدين لم يفرض الزكاة فى أموال الأغنياء إلا على أساس اعترافه بالفقر والفقراء ، ونظرته إلى ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا استنكار، رفض الغزالى هذه الحجة موضحاً أنه إذا قبلنا هذه الطريقة فى الاستدلال فإنه يمكن القول : " إن الدين لا يفرض الجهاد على المؤمنين إلا على أساس اعترافه بالكفر والكافرين ، ونظرته إلى ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا إنكار !!

ثم لكى نضمن بقاء فريضتى الزكاة والجهاد ، يجب أن نعمل على بقاء الفقر والكفر ، وإلا لم يبق للأغنياء والمجاهدين عمل يقومون به إيماناً واحتساباً .. إن الله عز وجل لا يحب من الناس أن يشردوا أو يفسدوا وهو القائل : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوْا فَإِن الله غَنى عَنْكُمْ ولا

يَرْضَى لعباده الْكُفْر﴾ [الزمر:٧] ولا يحب لعباده كذلك أن يشقوا أو أن يفتقروا ، وهو القائل : ﴿ يرُيدُ ا لله بكُمُ الْيسْر ولا يُريدُ بكُمُ العُسْر ﴾ [البقرة :١٨٥]

فإذا كان اعوجاج الحياة الإنسانية على ظهر الأرض وزيغها عن سواء السبيل قد أدى إلى ظهور الفقر والكفر هنا وهناك، فإن رسالة الدين تقوم على علاج هذا الانحراف ، وتستهدف رد جميع الناس إلى الإيمان والأمان .

كما تقوم رسالة الطب على علاج الأمراض وقتل جراثيمها ، فهى لا تهادن المرض لحظة" [٢٥] .

وإذا كان الشيخ الغزالى قد أوضح بجلاء أن الإسلام لا يكرس الفقر ولا يميل إلى استمراره وإنما وضع الوسائل لمواجهته ، فإنه أيضاً أكد أن الدين الحنيف ليس ضد الغنى ما دام الأغنياء يخرجون حقوق الله فى المال من زكاة وصدقات، ولكنه ضد الترف والمترفين ، فالقرآن يرى أن وجود الطبقات المترفة خطراً داهماً لا يفتأ يتهدد الحياة الإنسانية ويملأ مستقبلها بالغيوم ويقرر أن المترفين أعداء كل إصلاح [٢٦] ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥] .

وفى كتابه (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة) عرض الشيخ الغزالى الضمانات التى يمنحها الإسلام لحقوق الإنسان موضحاً ما يكفله الإسلام من حقوق وحريات وما شرعه من عدالة ومساواة وما ضمنه للناس من كرامة، وتحدث باستفاضة عن الحقوق السياسية والمدنية للإنسان فى الإسلام وعن الحريات السياسية والفكرية والدينية وحقوق العمل والتعليم .

وهكذا يمكن القول بثقة كبيرة : إن أفكار الغزالى السياسية أو تجديده للفكر الدينى فى الميدان السياسى ، كان من أقوى الأسلحة التى كسحت جناح التغريب ؛ إذ إن كتاباته السياسية وإن جاءت دائماً فى معرض دفاع حار عن الإسلام ، فإنها لم تكن مجرد هتاف أجوف ، وإنما اشتملت على مادة علمية أولية اتخذت بديلاً لأطروحات التغريب [٢٦] .

هوامش الفصل الثالث

(الغزالى وتجديد الفكر الإسلامى فى الميدان السياسى)

١ – د. سيف عبدالفتاح (التجديد السياسى والواقع العربى المعاصر . رؤية إسلامية) ص ٧

٢ – د. نصر عارف : " فى مصادر التراث السياسى الإسلامى دراسة فى إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل".. فيرجينا، المعهد العالى للفكر الإسلامى، ١٩٩٤، ص٥٩–٦٥

٣– محمد الغزالى: " مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية" ص ١٢٣

٤– محمد وقيع الله ص ١٠٧–١٠٨

٥– المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

٦– المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

٧– القرضاوى: " الشيخ الغزالى كما عرفته" ص ١٨٧– ٢٠٢.

٨– لمزيد من التفاصيل راجع : لؤى صافى : " العقيدة والسياسية " فيرجينيا : المعهد العالى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٦م ، ص١٥ وما بعدها.

٩– محمد الغزالى:" الإسلام الاستبداد السياسى" القاهرة : دار الكتب الإسلامية، ط٣،١٩٨٤ ص ٨.

١٠– المرجع السابق، ص ٥٥

١١– المرجع السابق، ص ٥٥

١٢– محمد الغزالى :" أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية " دار الشرق الأوسط ، ١٩٩٠ ، ص٦٩

١٣– المرجع السابق ، ص٥١ ، ٦٩

١٤– المرجع السابق، ص ٥٤.

١٥– محمد الغزالى: " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" القاهرة: دار الوفاد ١٩٨٨، ص ٢٢١

١٦– محمد الغزالى : " الإسلام والاستبداد السياسى" ص ٥٢.

١٧– محمد الغزالى : " أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية " ص٤٩

١٨- المرجع السابق ص٤٩

١٩- محمد الغزالى : " حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة" القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٤، ص ٥٩.

٢٠- المرجع السابق ص ٥٩.

٢١- محمد وقيع الله، ص ٢٠-١٢١.

٢٢- محمد الغزالى: " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" ص ٢٢١.

٢٣- محمد الغزالى :" الإسلام والأوضاع الاقتصادية" القاهرة: دارالريان للتراث ط٨ ،١٩٨٧م ص ٣٦-٣٧.

٢٤- المرجع السابق ص ٣٨

٢٥- المرجع السابق، ص ٤٨

٢٦- محمد وقيع الله، ص ١٣٧.

الفصل الرابع

إسهامات الغزالي

في إصلاح الفكر الإسلامي

إن الأزمة الحضارية التى تعيشها أمتنا الإسلامية ، ليست أزمة اقتصادية ، أو أزمة فقر فى الثروة ، ولا فقر فى القيم ، وإنما هى فى حقيقتها أزمة فكرية ، فالثروة موجودة بوفرة فى عالمنا الإسلامى ، والقيم " الإسلامية " تكفل ا لله بحفظها فى الكتاب السنة ، وإنما تكمن أزمة العقل المسلم فى العجز عن التعامل مع القيم والعجز عن الإنتاج الفكرى الذى يجسر العلاقة بين هذه القيم بمنطلقاتها وأهدافها ، وبين العصر الذى نعيش فيه (١) .

وعلى ذلك فإن المنطلق لكل إصلاح ونهوض إسلامى إنما يبدأ من إصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين ، وبناء النسق الثقافى الإسلامى ، وتصويب الرؤية الحضارية ، وتمكين الأمة من الشهود الحضارى ، وبناء العقل القادر على استلهام الأصالة وهضم الحداثة (٢) .

وإذا كانت الأزمة التى تعيشها أمتنا الإسلامية أزمة فكرية- كما أشرنا- فإنها تكمن بشكل أساسى فى افتقاد الأدوات والوسائل الموصلة إلى فهم القرآن الكريم والسنة النبوية.. فالأزمة أزمة فهم وأزمة تعامل وأزمة أمية عقلية صرنا إليها بذهاب العلم (مناهج الفهم ووسائل المعرفة) (٣) .

والمسلمون اليوم فى تعاملهم مع القرآن الكريم والسنة النبوية افتقدوا الوسائل والمناهج ، حتى نجد شرائح كبيرة من مسلمى هذا العصر تتعامل مع القرآن من منطلق التبرك ، وهناك من اقتصرت علاقته بالقرآن على أوقات الأحزان والمآتم ، وهكذا تحول القرآن الذى أحيا أمة من العدم إلى كتاب للموتى يقرأ فى الجنازات أو قطعة ديكور يوضع فى "تابلوه" السيارات وتعرضت السنة النبوية إلى ما سبق أن حذر منه المصطفى ﷺ على أيدى الغلاة والمبطلين والجهال ، فقد روى ابن جرير وتمام- فى فوائده- وابن عدى عن النبى ﷺ قال : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين" .

وإذا كان علماء الحديث قد وضعوا قواعد ومناهج تسد الطريق على منافذ الانتحال، فإن تحريف أهل الغلو وتأويل الجاهلين ، هما أبرز ما يواجه السنة النبوية اليوم بخاصة من

المسلمين الذين يسيئون فهم السنة ويشوهونها من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أو أنهم يدافعون عنها ، فتأويل الجاهلين وإن لبسوا لبوس العلماء وتظاهروا بألقاب الحكماء، هو ما يجب التنبه له والتحذير من الوقوع فيه.. [٤] .

كما أن تعامل المسلمين المعاصرين مع العبادات والمعاملات وسائر علوم الدين ليس بأفضل حالاً من تعاملهم مع القرآن والسنة ..

فماذا فعل الغزالى وما هى إسهاماته فى إصلاح الفكر الإسلامى وتجديده ؟

فى الحقيقة يمكن رصد ثلاثة منطلقات رئيسة انطلقت منها تجربة الغزالى فى إصلاح الفكر الإسلامى وهى :

أولاً : تصحيح أسلوب تعامل المسلمين مع القرآن الكريم والسنة النبوية بحيث يتم هذا التعامل برؤية حضارية تضع نصب أعينها مقاصد الإسلام الكبرى.

ثانياً : توجيه العقلية الإسلامية المعاصرة إلى العودة إلى الاعتماد على حقائق الدين النقية ، بعد أن لاحظ " أن الحقائق الرئيسية فى المنهاج الإسلامى لا تحتل المساحة العقلية المقررة لها ، وهذه الحقائق افتقدنا الكثير منها فى مسيرتنا التاريخية لاسيما فى القرون الأخيرة !... لقد شاعت الأقوال الضعيفة والمذاهب العسرة ، ورجحت الآراء التى كانت مرجوحة أيام الازدهار الثقافى الأول ، حتى ظن الناس أن الإسلام إذا حكم أعاد إلى الدنيا التزمت والجمود ." [٥] .

ثالثاً : إعادة ترتيب أولويات العقل المسلم بحيث تنال اهتمامه الأساسى القضايا الجوهرية وليس القضايا الثانوية أو الهامشية ، فقد كان ينبه دائماً إلى هذا الخطأ فى فقه الأولويات بخاصة لدى شرائح الشباب: "قد أوجع فؤادى أن بعض الشباب كان يهتم بهذه المسألة: هل لمس المرأة ينقض الوضوء أم لا ؟. وكان اهتمامه أحد وأشد من إجراء انتخابات حرة أو مزورة !! .. إن عدم سيطرة الحقائق الكبيرة على الوعى الإنسانى لا يمكن التغاضى عنه" [٦] .

ومن هذه المنطلقات ركز الغزالى فى مشروعه الفكرى على إصلاح الفكر الإسلامى برؤية إسلامية حضارية تربط النتائج بالمقدمات ، والجزئيات بالكليات والفروع بالأصول متجاوزاً الإغراق فى الجزئيات الذى قد يؤدى إلى عدم القدرة على رؤية معالم الصورة فى شكلها الكامل . وقد وجه هذا الهدف جُل جهده من أجل تصحيح المفاهيم الدينية المغلوطة ومواجهة التدين المنقوص ومحاربة التطرف فى فهم الدين والعودة به إلى وسطية الإسلام بعيداً عن أى إفراط أو تفريط ، وتنقية الثقافة الإسلامية مما لحق بها من خرافات وأباطيل .

فى هذا الميدان سار الغزالى بخطى ثابتة ، وتسلح برؤية نقدية غالباً ونبرة حادة فى بعض الأحيان لمواجهة الذين يقفون بالدين عند الشكليات وتشغلهم المعارك الفرعية عن جوهر الدين وحقيقته ، وراح الغزالى يبين الفروق والخطوط الفاصلة بين تعاليم الإسلام ومبادئه ، وبين التقاليد والعادات البالية التى أدخلها بعض المسلمين .

وهو فى كل ذلك يحاول تجسير العلاقة بين حقيقة الإسلام وبين واقع المسلمين الذى لم يعد فى كثير من الأحيان يمت للإسلام بصلة إلا الاسم ، فيقول فى مقدمة كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) : "إننا منتمون إلى الإسلام ومنكرون له فى آن واحد ، منتمون له بالميراث وخارجون عليه مادياً وأدبياً.... لست أتحامل على الجيل المعاصر ، ولا على الجيل الذى سبقه ، إن موجة الجزر بدأت قبل ذلك ، ثم شدت فى انسحابها الأجيال المتأخرة إلا قليلاً ممن تشبث بالحق فى مصادره المعصومة" (٧) .

ولأن المجال لا يتسع لرصد كل تجربة الغزالى فى إصلاح الفكر الإسلامى وتجديده ، فإننا سوف نتوقف عند المحطات الرئيسية فى هذه المسيرة الإصلاحية والتجديدية :

أولاً : الغزالى والقرآن الكريم :

القرآن الكريم هو معين الغزالى الذى ظل طوال حياته ينهل منه ويعود إليه ، يقرأه مرات ويعاود قراءته فيجد نفسه أنه لم يوفه حقه من الفهم والتدبر ، فيقول :

"لقد صحبت القرآن من طفولتي ، وحفظته في سن العاشرة . وما زلت أقرؤه وأنا في العقد الثامن من العمر.. بدا لي أن ما أقبس من معانيه قليل ، وأن وعيي لا يتجاوز المعاني القريبة والجُمل المرددة ، فقلت: ما قضيت حق التدبر فيه كما أمر منزله العظيم " (٨) .

ويمكن تقسيم جهود الغزالي الفكرية التجديدية في هذا الميدان إلى نوعين: الأول يندرج في مجال التفسير ، والآخر يركز على تصحيح التعامل مع القرآن الكريم.

١- تفسير القرآن الكريم :

قدم الغزالي للأمة الإسلامية تفسيراً جديدا للقرآن الكريم هو التفسير الموضوعي ، وهو يختلف عن التفسير الموضعي ، فالأخير يتناول الآية أو الطوائف من الآيات فيشرح الألفاظ والتركيب والأحكام .

أما التفسير الموضوعي فيتناول السورة كلها ، ويحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها ، وآخرها تصديقاً لأولها ، وقد اهتم اهتماماً كبيراً بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها (٩) .

ويؤكد أن هذا التفسير الموضوعي لا يغني أبداً عن التفسير الموضعي ، وإنما مكمل له (١٠) .

وهو في هذا التفسير يطرح رؤية غير مسبوقة : " قد أُرتاد طريقاً لم أسبق إليه أفتتح به باباً من أبواب الخير ، والقرآن لا تنقضي عجائبه ، ولن نبلغ مهما بلغنا مداه !!" (١١) وإن كان قد أشار إلى أنه قد تأسى بالشيخ محمد عبدا لله دراز في تفسيره لسورة البقرة في كتابه (النبأ العظيم) ، وقد اعتبره الغزالي أول تفسير موضوعي لسورة كاملة .

ورغم أن الغزالي قد قدم في كتابيه "المحاور الخمسة للقرآن الكريم" و"نظرات في القرآن" نماذج من هذا النوع من التفسير ، فإنه قد تناول جميع سور القرآن الكريم وفق هذا التفسير الجديد في الكتاب قبل الأخير في حياته والذي تكون من ثلاثة أجزاء بعنوان "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" وقد صدر الجزء الأول منه الذي تضمن

الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم عام ١٩٩١ ، استمر الشيخ يكتبه حتى عام ١٩٩٥ حيث صدر الجزء الثالث الذى تضمن تفسيره الموضوعى للأجزاء العشرة الأخيرة من القرآن الكريم .

وكشأن كل الرواد ، فإنه فى هذا النوع من التفسير يستكشف معالم الطريق ويضع الخطوط الرئيسية. فيقول :" إننى مستكشف قاصر وأن الوادى الذى أستقى منه يسيل على قدرى أنا ، وهو محدود ، ولكنه يحث الخطى إلى ما هو أبعد ، ويحدو أولى الألباب إلى الشأن الأعلى فى خدمة القرآن ، وإماطة اللثام عن روائعه وبدائعه" (١٢).

ونعرض فيما يلى نموذجاً لهذا التفسير ، وهو تفسيره الموضوعى لسورة الفاتحة :

﴿بسم ا لله الرحمن الرحيم﴾

سورة الحمد من قصار السور ولكنها أم الكتاب ، وأعظم سوره.

تضمنت خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام وعهداً وثيقاً بين الناس وربهم يحقق رسالتهم فى الوجود ورجاء فى ا لله أن يهدى الطريق ، ويمنح التوفيق ، وينعم بالرضا..

ولننظر فى الآية الأولى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ .

الحمد لفظ تلتقى فيه معان ثلاثة ، فهو ثناء يكشف عن أمجاد الذات العليا من جلال وجمال وكمال ، وهو مديح على ما ننال من عطاء ونعماء ، وجاد بها ولى النعم ، وهو شكر يقابل الخير النازل والفضل المسدى .

وعندما نصبح فنقول مثلاً "الحمد لله الذى أحيانا من مماتنا وإليه النشور" فنحن نثنى ونمدح ونشكر .

و﴿رب العالمين﴾ سيد العوالم كلها من العرش إلى الفرش ، من السماء إلى الأرض ، من الحيوان إلى النبات ، من الملائكة إلى البشر .

والعالم ماعدا ا لله من خلق ، وماعدا ا لله مربوب له فقير إليه

نعم كل ما عـدا ا لله عبـد لـه ، صنيعة نعمتـه ، ﴿ فللـه الحمـد رب السـموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

﴿الرحمن الرحيم﴾ نحن فى رحمته نعيش ، والرحمة والعلم يسعان كـل شـىء ، ولـولا أن ا لله غفور رحيم لفتكت بنا معاصينا وقضى علينا جحودنا وطغياننا .

﴿مالك يوم الدين﴾ المقصود بالدين الجزاء ، وهو بداية العالم الآخر ، والعالم الآخر هو المقابل لعالمنا المعاصر.

والحضارة المادية المسيطرة على الحياة الآن قلما تذكره بل لعلها ترى من الهزل ذكـره. وهى تتعمد نسيانه فى ميادين التربية والتشريع والسياسة الدولية والمحلية مـع أنـه الحقيقـة العظمى ، الأجدر بالرعاية والحساب..

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ نعبدك وحدك يـاا لله ، ونسـتعين بـك لا بغـيرك ، فكـل غير محتاج إليك ، كما جاء فى السنة " اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" "إذا سألت فاسأل ا لله وإذا استعنت فاستعن با لله" .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم .. ﴾ الخط المستقيم أقصر طريق بـين نقطتـين ، ولذلـك لا يتعـدد ، ومـن اسـتقام اهتـدى إلى ا لله ﴿إن ربـى علـى صـراط مستقيم﴾ .

ودين ا لله واحد ، بلغه الأنبياء على اختلاف الأعصار والأمصار ، أساسه إلـه واحـد ، له الولاء ، وله الثناء يفتقر إليه أهل الأرض وأهل السـماء .

ولعل هذه النقطة مثار الخلاف بين أتباع الأديـان المعـاصرة ، فالمسـلمون يوقنـون بـأن ماعدا ا لله عبد له خاضع لحكمه عان لأمره فى الدنيا والآخرة .

ويستحيل أن يتجاوز هـذه الحقيقـة بشـر أو ملـك.. فمـن لزمهـا نجـا ومـن زاغ عنهـا هلك..

وكل من أحسن طاعة الله ورسله بلغ هذه الغاية ﴿ ومن يطـع الله والرسـول فـأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشـهداء والصـالحين وحسـن أولئـك رفقياً ﴾ النساء: ٦٩- أما من أشرك بالله شيئاً ، أو رفض الانقياد لأمره فهو بين الضلال والغضب لا أمل له ولا خير فيه ..

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ على الإنسان أن يكون صائب الفكـر صـادق النظر ، فإذا اهتدى إلى الحق فعليه أن يعمل به ويتواضع لربه ، ويرفق بعباده .

وهذه السورة فرض الله قراءتها في جميع الصلوات ، لتكون مناجـاة متجـددة مقبولـة بين الناس ورب الناس ، فهي حقائق علمية ، وهي في الوقت نفسه ، ضراعـة عبـد ينشـد رضا مولاه..

وقد جاء في السنة "قسـمتُ الصـلاة بيني وبـين عبـدي نصفين ولعبـدي ماسأل فإذا قـال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله : حمدني عبدي! إذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قـال الله أثنى عليّ عبدي! فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله: مجدني عبدي ، أو فوض إلى عبدي !

فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل .

فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهـم ولا الضالين ﴾ قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل..!!

ونحن نكرر الدعاء لأنفسنا ، كما نكرر غسل أعضائنا لأن أسباب هذا التكرار قائمـة، فالجسم الإنساني لا يكفي في تطهيره أن يغسل مرة أو مرتـين ، لابـد مـن تكـرار الغسـل مدى الحياة !!

والطبع البشرى لا تصقله دعوة أو دعوتان لابد من تكرار الوقوف بين يدى الله ؛ لأن رعونات النفس ووساوس الشيطان لا تنتهى ، فلابد من تكرار الدعاء ، واستدامة التضرع ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ [النساء : ١٠٣] .

وهكذا فى سطور قلائل تم تصوير العلاقة الوحيدة الممكنة بين الناس ورب الناس .

الاعتراف به ، والثناء عليه ، والاستعداد للقائه والتعهد بعبوديته ثم الرجاء إليه أن يجعلنا كما يحب " (١٣) .

٢- تصحيح التعامل مع القرآن الكريم :

أما دور الغزالى فى تصحيح تعامل المسلمين مع القرآن الكريم فقد اتضح بشكل متفرق فى العديد من كتبه ومقالاته ، إلا أن المدارسة التى أجراها معه الأستاذ عمر عبيد حسنة وصدرت عام ١٩٩١ بعنوان "كيف نتعامل مع القرآن" قد تضمنت رؤيته الكاملة لقضايا التعامل مع القرآن الكريم ، بدءاً من تجربة الغزالى فى حفظ القرآن خلال طفولته وحتى أسلوب إدراك السنن الإلهية التى تضمنتها الآيات القرآنية كوسيلة للشهود الحضارى ، ومروراً بالعديد من القضايا المتعلقة بتعامل المسلمين مع القرآن الكريم فهماً وتنزيلاً وتدبراً وتفسيراً، وغير ذلك من مستلزمات التلقى القرآنى والتعامل مع النص .

وأول خطواته لتصحيح تعامل المسلمين مع القرآن تبدأ بتصحيح مفهوم قراءة كتاب الله ، فهو ينتقد الوقوف عند الجانب الشكلى للقراءة دون التدبر والفهم "فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة ، كما يقولون ، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها ، ووعى لمغازيها ، يفيد أو هو المقصود. وعندما أتبين الموقف فى هذا التصرف أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية ، ذلك أن قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص:٢٩] يعنى الوعى والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية" (١٤) .

وينبه الغزالى إلى شمول الرؤية القرآنية مبيناً أنها تربط بين العقيدة والكون والنفس

البشرية فى وقت واحد فيقول :

"تتبعت كلمة : ﴿أولوا الألبـاب﴾ فى القـرآن الكريـم فى سـتة عشـر موضعاً أثنـاء الحديث عن النفس والكون ، والتاريخ الماضى ، والحديـث عـن ا لله فوجـدت أن القـرآن ليس كتاباً فنياً مقسماً على قضايا معينة ، ثم تنقطع فيه الرؤية الشـاملة ، بـل هـو يعـرض الكون وهو يبنى العقيـدة.. ويعـرض الكـون وهـو يربـى الخلـق.. ويمـزج الجميـع بطريقـة مدهشة . فالنظر فى الكون والواقع والتاريخ يقود إلى الإيمان ، ويؤصل التوحيـد ، ويبنـى الخلق. فقوله تعالى :

﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة : ٢١] . فهذا توحيد ، فيه أمر للناس بـالعودة لله ، لكن ﴿ الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون۝ الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به مـن الثمـرات رزقـاً لكـم فـلا تجعلـوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ [البقرة : ٢٢] .

انظر إلى طريقة القرآن : كيف عرض الكون ومظاهره ، وحقائقه وهو ينفى الشركاء، ويؤسس عقيدة التوحيد ، وهذا فى المدينة.. كذلك نجد المسلك نفسه فى مكة :

﴿ ا لله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيــه والنهـار مبصـرًا إن ا لله لـذو فضـل علـى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ۝ ذالكم ا لله ربكـم خـالق كـل شـىء لا إلـه إلا هـو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات ا لله يجحدون ﴾ [غافر: ٦١-٦٣] (١٥) .

ويدعو إلى إدراك السنن الإلهية التى جـاءت فـى القـرآن الكريـم معتـبراً أنهـا قوانـين اجتماعية وإنسانية تماثل قوانين المادة الطبيعية ، فكما " توجد سنن كونية فـى إطـار المـادة تجعل درجة الغليان مثلاً عند المائة ، ودرجة التجمد عند الصفر، أو تجعل للغازات ضغوطاً معينة.. كذلك الأمر فى الحضارات البشرية، وانهيارات الأمـم وانتصاراتهـا: إنهـا تخضـع لقوانين لا يمكن أن تتبدل. ولقد نبه القرآن إلى هذا فى قوله تعالى :

﴿وأقسموا با لله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمـم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ۞ استكباراً فـى الأرض ومكـر السيئ ولا يحيـق المكـر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسـنت ا لله تبديـلا ولـن تجد لسنت ا لله تحويلا﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣] .

سنن ا لله فى المجتمعات هى صور أخرى مكملـة أو امتـداد طبيعى لسـنته فـى ميـادين العلوم التطبيقية وإن كانت كيميائية أو فيزيائية ، أو نباتاً وحيواناً ، أو أى شىء"(١٦) .

ويؤكد أن هذه السنن الإلهية قد انطبقت على صاحب الرسالة نفسه ، نصراً وهزيمة ، فعندما قصر المسلمون فى اتخاذ الأسباب المطلوب لاستكمال النجاح فى "أحـد" هُزمـوا ، وقيل لصاحب الرسالة: ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ [آل عمران: ١٢٨] .

وإذا استكملوا أسباب الانتصار ، انتصروا.. وقد طبقـت هـذه القوانـين نفسـها علـى أمتنا خلال الأربعة عشر قرناً من تاريخها ..

ومن السنن التى توقف عندها الغزالى سُنة التـداول الحضـارى التـى يشـير إليهـا قولـه تعـالى : ﴿إن يمسسـكم قـرح فقـد مـس القـوم قـرح مثلـه وتلـك الأيـــام نداولهـا بـين النـاس..﴾[آل عمـران: ١٤] ويطبـق هــذه السـنة علـى تواريـخ العـالم فيجـد " أن الأمبراطوريات والدول كأنها تشبه الإنسان ؛ لأن لها أعماراً تنتهى إليها .. إن الحضـارة أشرقت من مصر ثم انطفأت .. وأشرقت من اليونان ثم انطفأت وأشرقت من الرومان ثم انطفأت" (١٧) وبهذا الفهم المتعمق لسنة التداول الحضـارى تنبأ الغـزالى فـى وقـت مبكـر بانهيار النظام الشيوعى وسقوطه من الداخل رغم أن هذا النظام كان فـى عنفـوان قوتـه ، فقد صرح بذلك فى مقدمة كتابـه "الإسـلام فـى وجـه الزحـف الأحمـر" التـى كتبهـا عـام ١٩٦٦م ، قائلاً : إن "الشيوعية لو عرفت على حقيقتها العارية نظرياً وعملياً لـولى عنهـا الأنصار ، ولا نصرفوا كارهين " (١٨) .

وأوضح أن فى القرآن الكريم العديد من الآليات التى هى سنن إلهية وقوانين لابـد أن

تنطبق على الجميع مسلمين وغير مسلمين ، ومن هذه الآيات على سبيل المثال : [19]

﴿ إن ا لله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد: ١١] .

و﴿ما يفتح ا لله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده﴾[فاطر: ٢]

﴿إن ا لله لا يصلح عمل المفسدين ويحق ا لله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس: ٨١-٨٢]

و﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل ا لله أضل أعمالهم﴾ [محمد: ١]

و﴿إنه من يتق ويصبر فإن ا لله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠]

و﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون ا لله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣] .

وينبه الغزالى إلى أهمية تلقى الخطاب القرآنى واستيعابه فى ضوء خلود القرآن وصلاحية الإسلام لكل زمان ، فهذا الخلود يعنى أن الخطاب القرآنى يواجه مشاكل الإنسانية عبر الأزمان والعصور ، ويرى أن الآيات القرآنية التى ارتبطت بأحداث معينة فى العهد النبوى ، لا ينبغى أن يقتصر تفسيرها على أسباب النزول فقط ، مؤكداً أن سبب النزول ما هو إلا "مفتاح لكنز من المعلومات بدأ ينساب مع هذا السبب . وهذا الكنز من المعلومات الذى انفتح لنا بسبب سؤال فلان ، أو حالة فلان ، أو تطلب الوضع لحل ، هو الذى جاء بهذه الخيرات كلها .. ولذلك لا أنظر لسبب النزول إلا كأنه نوع من السبب الأدنى لهذه المعانى التى جاءت كلها [20]

فى هذا الإطار يشير الغزالى إلى حقيقة مهمة يجب ألا تغيب عن فهمنا للخطاب القرآنى وهى : " أن المجتمع القديم الذى نزل فيه القرآن ، هو مجتمع بشرى وأحواله

صورة مما يعترى البشرية على امتداد الزمان إلى انتهاء الحياة . فالحكم فى أيـة صـورة مـن هذه الصور هو حكم بطبيعته ممتد ؛ لأنه ليس خاصًا بهذه الصورة ، بل هو يتجدد مع كل صورة مشابهة إلى قيام الساعة. ومن هنا جاء الخلود" (٢١) .

وفى تصحيحه لفهم الخطاب القرآنى يفرق الغزالى بين الخطاب الموجه للفرد والخطاب الموجـه للدولة أو السلطة . فيقول : " الشعب يعاون الحكومة فى تطبيق الأحكام ، أما العمل الذى تقـوم به الدولة ، فلا يترك للأفراد ولا يطلب منهم ، فكيف أنظم الجهاد مثلاً؟ الجهاد لابد له من أجهزة تشرف عليها الدولـة .. فمثـلاً الأمر الإلهى : جاهدوا فى سبيل الله.. كيـف ينفـذ ؟ لا يمكـن للإنسان أن يخرج ويقاتل من نفسه . لابد أن يسلم نفسه للدولة المسلمة ، كذلك القضاء ، الأمر يحتاج فى تحقيق الجرائم وإثباتها ومعرفة الجدير بالعقاب أو من تاب الله عليه ، كل ذلك يحتاج إلى تخصصات وأجهزة تشرف عليها الدولة . فـإذا سـقطت الـدول الإسـلامية ، فجهـد النـاس إقامة الدولة التى تقوم بوظيفتها .. أى أن نصيبهم من الخطاب إقامة الدولة .. وفـى غيـاب الدولـة ، لا يمكن أن أعطى الأفراد حقوق الدولة .. هذا بـاب إذا فتـح فتحت معـه أبـواب الفوضـى كلهـا ، وأبواب الهمجية ؛ لأن كل إنسان سيدعى أنه يقيم حكم الله وهو لا يدرى ما حكم الله. وتتعدد السلطة .. إلخ . الحاكم يقول للزانى : "لعلك قبلت".. يريد إسقاط الحكم عنه .. فإذا جـاء مـن يريد إقامة الحكم بأية طريقة ، فربما صادم التعاليم الإسلامية وأوضاعها. ويوجد الآن ناس كثيرون لا يوثق بفقههم" (٢٢) . وانطلاقـاً مـن هـذا التمييـز بـين الخطـاب الموجـه للفـرد والخطـاب الموجـه للدولة، يوضح على سبيل المثال أن الخطاب القرآنى الوارد فى قوله تعالى : ﴿والسـارق والسـارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله﴾ [المائدة: ٣٨] موجه للدولة وليس للأفراد قائلاً: " إن الحدود والقصاص وظيفة الدولة ، ويستحيل أن يقوم إنسان بإنفاذ الحدود وإنفاذ القصاص ، وهو من عامة الشعب .. هذه وظيفة الدولـة ، وليسـت وظيفـة الأفـراد.. بـل فـى رأيـى أن تغيير المنكر وهو مطلوب من الأمة ، لا يعطى هذا الحق لكل إنسان ؛ لأن تعريف المنكـر نفسـه يختلـف فيه الغوغاء مع الفقهاء.. فقد يرى بعض الناس أن تصوير شـخص فـى ورقـة معصيـة وكبـيرة مـن الكبائر ، وإن امرأة كشفت وجهها جريمة .. لابد من وضـع حـدود ، ليعلـم كـل إنسـان الدائـرة التى يمكن أن يؤدى فيها واجبه الدينى (٢٣) .

ثانيا : الغزالى والسنة النبوية :

وفى ميدان إصلاح الفكر الإسلامى لا يمكن إغفال موقف الغزالى من السنة النبوية ، ذلك الموقف الذى لاقى سوء فهم من جانب البعض ، فظنوا خطئاً – أنه ضد السنة ، وقد أثار كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ردود فعل متباينة ومعركة فكرية لا تزال أثارها قائمة فى العالم الإسلامى .

قال ﷺ : " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين." رواه ابن جرير وتمام فى فوائده .

وإذا كان علماء الحديث قد وضعوا قواعد ومناهج تسد الطريق على منافذ الانتحال ، فإن تحريف أهل الغلو وتأويل الجاهلين ، هما أبرز ما يواجه السنة النبوية اليوم بخاصة من المسلمين الذى يسيئون فهم السنة ويشوهونها من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أو أنهم يدافعون عنها ، فتأويل الجاهلين وإن لبسوا لبوس العلماء وتظاهروا بألقاب الحكماء ، هو ما يجب التنبيه له والتحذير من الوقوع فيه .

والحقيقة أن الغزالى أراد أن يبين الأصول والقواعد العلمية فى التعامل مع السنة النبوية دفاعاً عنها من عبث العابثين ، وليس لأنه ينكر حجية السنة أو يخاصمها كما زعم البعض بعد صدور الكتاب المشار إليه ، والشيخ أراد أن يصحح فهم بعض الفتيان الذين "يتطاولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوى ، مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة ، ولا استهانوا بحديث صحت نسبته وسلم متنه. وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً فى بعض المرويات فردوها – وفق المنهج العلمى المدروس – وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سبيلاً [٢٤] .

وقد أثبت الدكتور يوسف القرضاوى أن هذا الكتاب ليس ضد السنة ، مؤكداً أن هذا القول فيه ظلم للغزالى الذى طالما دافع عن حجية السنة النبوية وهاجم خصومها بعنف ، وموضحاً أن منطلق الغزالى فى هذا الكتاب هو الدفاع عن السنة أمام فريق

(العقلانيين). ولو أدى ذلك إلى رد بعض الأحاديث الثابتة فى الصحاح إذا ناقضت منطق العقل أو منطق العلم ، أو منطق الدين نفسه ، حسبما يراه ، والمبدأ مقرر لدى علماء الحديث أنفسهم ، ولكن الخلاف فى التطبيق . ربما أسرف الشيخ فى رد بعض الأحاديث الثابتة ، وربما قسا كذلك على بعض الفئات ، ووصفهم ببعض العبارات الخشنة والمثيرة ، وربما استعجل الحكم فى بعض مسائل كانت تحتاج إلى بحث أدق وإلى تحقيق أوفى .

ويقرر أن إنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة وإن ثبت فى الصحاح لا يعنى بحال إنكار السنة بوصفها أصلاً ثانياً ومصدراً تالياً للقرآن . ولو صح ذلك لأخرجنا أئمة كباراً مثل أبى حنيفة ومالك من زمرة أهل السنة ، لردهما أحاديث صحاحاً فى العبادات والمعاملات لم تثبت عندهما [٢٥] .

وإذا استجلينا موقف الغزالى من السنة النبوية من واقع كتاباته ، نجد أن موقفه يتسق مع ما سار عليه علماء الأمة على مدار تاريخها ، فهو يشير إلى أن علماء السنة قد وضعوا خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية ، ثلاثة منها فى السند واثنان فى المتن ، وهى :

"١- لابد فى السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع ، ويحكيه بعدئذ طبق الأصل ..

٢- مع هذا الوعى الذكى لابد من خلق متين وضمير يتقى الله ويرفض أى تحريف .

٣- هاتان الصفتان يجب أن يطردا فى سلسلة الرواة ، فإذا اختلتا فى راو أو اضطربت إحداهما فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة .

وننظر بعد السند المقبول إلى المتن الذى جاء به ، أى إلى نص الحديث نفسه ..

٤- فيجب ألا يكون شاذاً .

٥- وألا تكون به علة قادحة .

والشذوذ أن يخالف الراوى الثقة من هو أوثق منه .. والعلة القادحة عيب يبصره المحققون فى الحديث فيردونه به " [٢٦] .

ويرى أن فى هذه الشروط ضمان كاف لدقة النقل وقبول الآثار ، ويدعو إلى الاهتمام بنقد المتن إلى جانب الاهتمام بنقد السند فى إطار القواعد التى قررها العلماء والفقهاء فى هذا المجال ، فقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعلة كامنة فيه (٢٧) ؛ ولذلك فإن الحكم بسلامة المتن يتطلب علماً بالقرآن الكريم ، وإحاطة بدلالاته القريبة والبعيدة ، وعلماً آخر بشتى المرويات المنقولة لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر .

وهذا لا يعنى أن الغزالى ينحاز إلى جانب الفقهاء ضد المحدثين ، وإنما فقط يرى أن عمل الفقهاء متمم لعمل المحدثين وحارسى السنة من أى خلل قد يتسلل إليها عن ذهول أو تساهل ، فالفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما، جمعوا كل ما جاء فى شأنها من الكتاب والسنة ، وحاكموا المظنون إلى المقطوع ، وأحسنوا التنسيق بين شتى الأدلة .. أما اختطاف الحكم من حديث عابر، والإعراض عما ورد فى الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء (٢٨).

وللغزالى رأى معروف فى خبر الأحاد ، وهو أنه لا يفيد علمًا يقينيًّا وبالتالى لا تؤخذ منه عقيدة ، فحديث الأحاد يعطى " الظن العلمى أو العلم الظنى " ، ومجاله الرحب فى فروع الشريعة لا فى أصولها (٢٩) .

إن هذا الرأى يتأسس على أمرين :

الأول : أن العقائد لابد أن تبنى على اليقين لا الظن .

والثاني : أن أحاديث الأحاد – وإن صحت – لا تفيد اليقين ، بل لا يفيد اليقين إلا المتواتر .

ونصوص القرآن تؤيد الأمر الأول ، حيث يقول تعالى في ذم المشركين ﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ [النجم:٢٨] ، كما أن أقوال جمهور علماء أصول الدين وأصول الفقه وعلماء الحديث تؤيد الأمر الثانى ، واستثنوا ما احتفت به القرائن ، كأن يكون في الصحيحين ، وتلقته الأمة بالقبول ، وسلم من المعارض ، ونازع في ذلك بعض المحدثين والحنابلة .

ويؤكد أن هذا التوجه في التعامل مع أحاديث الأحاد في العقائد هو الشائع لدى المدارس والجامعات الدينية الشهيرة في العالم الإسلامى ، التى تتبع منهج الأشاعرة والماتريدية في أصول الدين ، مثل الأزهر الشريف ، والزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب [٣٠] .

وهناك موقف آخر أخذه البعض على الغزالى ، وهو رده لبعض الأحاديث الصحيحة من أحاديث الأحاد ، وهي أحاديث قليلة لا تتعلق بأصول الدين ولا بالأمور الجوهرية فيه، وقد ردها الغزالي دفاعاً عن الدين في مواجهة أعدائه وليس لهوى في نفسه ، وهذا الموقف لم ينفرد به الغزالي عن علماء المسلمين وأئمتهم ، وإنما قد سبقه في هذا الأمر العديد من الأئمة الذين ردوا أحاديث لم تصح عندهم ، ولم يقلل هذا الموقف من شأنهم ولم ينتقص من إخلاصهم أو غيرتهم على الدين .

ومن أمثلة الأحاديث التى ردها الغزالى : حديث لطم موسى عليه السلام لعين ملك الموت حتى فقأها !! وحديث [لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم (أى لم يفسد) ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها] فهى أحاديث لا يتوقف عليها أمر من أمور الدين ، – بل إنه (لو مات المسلم ولقى ربه دون أن يقرأها أو يعرف عنها شيئاً ما نقص من إيمانه ذرة) على حد قول الدكتور يوسف القرضاوى في كتابه (الغزالى كما عرفته.. رحلة نصف قرن) .

أما الأحاديث الضعيفة فيرى أن من حق المهتمين بها أن يذكروها بعيداً عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية "فإن الدماء والأموال والأعراض أكبر من أن تتداول فيها شائعات علمية ، وكذلك أصول التربية ، وتقاليد المجتمع ، والشعائر التى يشخص إليها الرأى العام ، وتعد منارات على حقائق الإسلام وأهدافه فى الحياة.. يمكن الاكتراث بالأحاديث الضعيفة فى قضايا هامشية ، أو حيث تكون زيادة تنبيه إلى ما قررته الأدلة المحترمة فى كتاب الله وسنة رسوله"[٣١] .

وهذا النهج سار عليه العلماء ولم يحد عنه إلا بعض الطوائف من العوام أو من ذوى الأغراض على حد تعبير الغزالى .

وهو يحرص دائمًا على أن تفهم السنة فى ضوء القرآن الكريم ، وأن يكون هذا الفهم منسجمًا مع حقائق الدين ومقاصد الشريعة .

ثالثا : الغزالى والعبادات والأخلاق :

فى جهوده لإصلاح الفكر الإسلامى كان الغزالى ينبه دائماً إلى تكامل رسالة الإسلام وينهى على التجزىء المفتعل ، ويصحح فهم الناس لجوهر الدين ومقاصده

وفى هذا العصر تزايد الفصل بين مقاصد الدين وشعائره لدى قطاعات كبيرة من المسلمين ففى ميدان العبادات ، نجد أن الكثيرين أفرغوها من معناها الحقيقى وضيقوا مجالها ، وبالرغم من أن مفهوم العبادة فى الإسلام يتسع ليشمل مختلف مجالات الحياة فإنه تم قصر العبادات على أداء بعض التكاليف التى جاءت فى الحديث النبوى الشريف " بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً" (صحيح البخارى)

ولا يقتصر أثر هذه العبادات على ذات الفرد فى نفسه وداخل بيته فقط ، بل تمتد آثارها إلى علاقة المسلم مع إخوانه من المسلمين وغير المسلمين ، فالصلاة تهيئ للسلوك الحسن مع الناس. ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ﴾ [العنكبوت:٤٥]

وتعد الزكاة فريضة دينية ومالية معًا ، يتجاوز أثرها المزكى نفسه إلى أفراد المجتمع الذى تجمع فيه ، حيث يؤدى التطبيق الأمين لها إلى انتقال المجتمع برمته إلى مصاف أكثر المجتمعات تقدمًا وحضارة

والصيام نظام تربوى يظهر أثره بوضوح فى الأخلاق الشخصية التى لابد أن ينعكس أثرها على السلوك الاجتماعى ، ففى الصوم تخليص للإنسان من رق الشهوة وعبادة المادة وتدريب عملى على السيطرة على الغرائز

وفى الحج فوائد للناس ﴿ليشهدوا منافع لهم..﴾ ففيه درس عملى على نكران الذات والإخلاص لله تعالى ، وفيه تمرن على الأسفار وضبط النفس عن الرفث والفسوق والجدال [٣١]

وعندما وجد الغزالى أن كثيراً من المسلمين قد فصلوا بين أداء هذه التكاليف وبين أثرها فى المجتمع ، وباعدوا بين العبادات وبين مقاصدها – على النحو الذى أوضحناه حتى انحدرت الأخلاق عند كثيرين ممن لا يفوتهم أداء الصلاة فى أوقاتها وصوم رمضان وأداء الحج أكثر من مرة .. عندما وجد الغزالى هذا الفصل غير الطبيعى بين الأخلاق والعبادات قال بجرأته المعهودة وبرؤيته التجديدية : " إن الأخلاق تأتى قبل العبادة فى الإسلام " .

وأرجع فضيلته ما يحدث للمسلمين اليوم من هوان وذلة إلى تخليهم عن جوهر الدين الحنيف ، مشيراً إلى التخلف العلمى وتقاتل الأخوة فى الصومال وأفغانستان والاستبداد الذى لا يزال يخيم على العديد من المجتمعات الإسلامية.. لينتهى إلى أن مأساتنا " أننا مصابون فى أخلاقنا " .

وقال : " إن إسلام الفرد لا يكتمل إلا بالالتزام بالأخلاق التى جاء بها الدين الحنيف، واستشهد فى ذلك بقوله تعالى : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ [الأنعام:٤٨] و﴿من يسلم وجهه إلى ا لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ [لقمان:٢٢] (٣٢) .

وعن مرتبة الأخلاق فى العقيدة الإسلامية قال : " كان المتصور أن تسبق العبادة الأخلاق على أساس أن الأولى هى حق ا لله ، والثانية هى حق الناس ، ولكن تبين لى أن الأخلاق تسبق العبادة ، ويكون ترتيبها على النحو التالى : الإيمان فالأخلاق فالعبادة . واستند فى ذلك إلى حديثين نبويين الأول : يشير إلى أنه إذا توفرت ثلاث خصال فى الفرد فإنه منافق ، وهى الكذب وخيانة الأمانة وعدم الالتزام بالوعد ، وإن صلى وإن صام . والثانى يشير إلى الثلاثة الذين تسعر النار بهم يوم القيامة وهم قارئ القرآن والمتصدق بماله والمجاهد إذا كانوا يفعلون ذلك رياء .

والأخلاق نوعان : نوع إنسانى عام مثل الصدق والإخلاص .. إلخ ونوع ربانى ، وقد تحدث عنه علماء التصوف ، مثل خشية ا لله وشكره والتوكل عليه"(٣٣) .

ونبه إلى الخلط الذى يحدث فى فهم الأخلاق لدى كثير من المسلمين فقال: " هناك فرق بين عزة النفس والكبر ، وبين التواضع والاستكانة ، وبين التوكل والتواكل " .

وأشار إلى الوضع المؤسف الذى أصبح عليه واقع المسلمين اليوم فى تعاملهم مع الأخلاق قائلاً : " إننا لا نكاد نجد الأخلاق الربانية فى دنيا المسلمين اليوم ؛ حيث أذل الحرص أعناق الرجال ، فى حين أخلاقنا الربانية تقول : اطلبوا الحوائج بعزة نفس فإن الأمور تجرى بالمقادير ، أما الأخلاق الإنسانية فمن المؤسف أن الناس يلتزمون بها فى الغرب اليوم أكثر مما يلتزمون بها فى مجتمعاتنا الإسلامية ، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية فى كل ما يحدث لأمة الإسلام اليوم فى الداخل والخارج (٣٤) .

وفى مجال العبادات نبه الغزالى فى الكثير من خطبه ومقالاته وكتبه إلى ضرورة التمييز بين العبادات التى هى تكاليف من الله تعالى ، والعادات التى هى من صنع الناس ، ومن ألوان الخلط بين العادات والعبادات ما يذكره البعض تحت عنوان " آداب الطعام فى الإسلام" ، فعلى سبيل المثال ذكر عالم هندى أنه يجب أن يضع الطعام على الأرض لا على الطاولة ، وعلى من يأكل أن يجلس متربعًا أو على ساق أو جاثمًا على الساقين ، ولا يتناول الطعام أبداً مستنداً إلى كرسى !!

ويجب أن تسبق النية الطعام – أى أن يقصد بالأكل القوة على طاعة الله – لا إشباع الشهوة ، ويجب أن تشترك الأيدى الكثيرة فى الإناء الواحد .

وقد رد الغزالى على هذه الأقوال مؤكداً إنها عادات لا تدخل فى نطاق الدين، فالأكل جائز على الأرض وعلى المنضدة . ويجوز الجلوس على الكرسى فى أثناء الأكل ، وينبغى أن يرضى ربه بالطعام فى الوقت الذى يشبع فيه نهمته منه ! وله أن يأكل وحده فى إنائه . أو يأكل مع آخرين ! (٣٥) .

وصحح بعض المرويات التى وردت فى هذا المجال ، وفيها الحديث الذى رواه أبو داود عن عائشة وجاء فيه : " لا تقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنع الأعاجم وانهشوا نهشًا ، فإنه أهنأ وأمرأ " فأكد أن هذا الحديث باطل ، موضحاً أنه قد ثبت فى الصحاح

أن الرسول ﷺ كان يستخدم السكين فى تقطيع اللحم وهو يأكل ، كما أن سند الحديث مرفوض ، ولم يجئ أمر بالأكل على الأرض أو نهى عن الأكل فوق طاولة ، وما سكت الشارع عنه فهو فى دائرة العفو ، ولا مجال فيه لوجوب أو حرمة ! [٣٦] .

كما رفض الأحاديث التى وردت فى فضل العمامة وفيها ما ذكره البيهقى " عليكم بالعمائم فإنها سيماء الملائكة وأرخوها خلف ظهوركم " مؤكداً أن العمائم لباس عربى ، وليس شارة إسلامية ، وكذلك العقال ، والواقع أن البيئة الحارة تفرض تغطية الرأس والقفا ، ويستحب فيها البياض والسعة . أما البيئات الباردة فطلب الدفء إلى تضيق الملابس واختيار الألوان الداكنة . وقد جاء الحديث الصحيح : " كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة " [٣٧] .

وربط الغزالى بين فريضة الصيام وفضيلة الإستعلاء على رغبات النفس ، موضحاً أن النفوس فى كثير من الأحيان تتعلق بكماليات يمكن الإستغناء عنها ، أو بمطالب لا يعنى فقدها شيئاً ذا بال ، وأن درس الصيام هو أن نستعلى بأنفسنا عن الجرى وراء تكديس السلع والأشياء دون داع ، فيقول في كتابه : الحق المر - الجزء الأول - [رأيت أمتنا تنظر إلى السلع التي تقدمها المدنية الحديثة بطفولة مضحكة وتتنافس فى إقتنائها مهما غلا ثمنها ، وعندما ارتفع سعر النفط ضاعف الأوروبيون سعرها ، وعندما هبط بقى السعر على حاله ، وبقى المشترون على رغباتهم وتطلعهم .

إن الإستعمار يعرف عجزنا عن (الإمتناع) فيستغل هذا الضعف كي يملى إرادته .. لو أننا على قدر من الإستعفاف والإستعلاء على رغبات النفوس لكان لنا معه شأن آخر ، ولعلمناه كيف يحترمنا !] .

وهو لم يكف عن نقد إغفال المسلمين لحكمة الصوم ، واتجاه غالبيتهم إلى زيادة الإستهلاك في رمضان ، في حين أنه شهر للصيام والقيام وليس موسم للطعام ، ولكن الأمم - كما يقول - (عندما تهزل تهبط بمستوى العبادة بدل أن ترتفع هى اليها) !!

رابعاً : الغزالى وتحرير المرأة :

تعد نظرة الإسلام للمرأة وحقوقهـا مـن القضايـا التـى كـانت ولا تـزال تمثـل مدخـلاً أساسيًّا للهجوم على الإسلام من خـارج العـالم الإسـلامى ، ومـن جـانب بعـض المسـلمين وبخاصة المنتمون إلى التيار التغريبى . وبعيداً عن البحـث وراء دوافـع هـذا الموقـف ، فإنـه يمكن القول : إن واقع المرأة فى العديد من المجتمعات الإسلامية – حيث يغفل أو يتجـاهل كثير من المسلمين الحقوق التى منحها لهـا الإسـلام – هـو المصـدر الرئيسـى لهذا الموقـف الملتبس ؛ حيث يتم الخلط بين وضع المرأة فى العالم الإسلامى وبين موقف الإسـلام منهـا . وقد تنبه الغزالى إلى ذلك وخاض معارك طويلة لتفنيـد محـاولات عـزل المـرأة عـن المجتمـع باسم الدين ، والجور على حقوقها وانحراف المسلمين عن تعاليم دينهم في معاملتهم للنساء استناداً إلى روايات ظالمة وأحاديث موضوعة !

ومـن ثـم شـغلت قضيـة تحريـر المـرأة مكانـة متمـيزة فـى مشـروع الغــزالى الفكـرى والتجديدى ، غير أن مفهوم تحرير المرأة الذى نقصده هنـا لا يتطـابق مـع المفهـوم السـائد لدى بعض التيارات المعاصرة فى مجتمعاتنا الإسلامية ، والذى يعنى تحريرها مـن الضوابـط التى جاء بها الدين ، وإنما المقصود به تحرير المرأة من الفهم الخاطئ للديـن ومـن الأغـلال التى يحاول البعض تكبيلها بها انطلاقاً مـن أحـاديث ضعيفـة ، وتبصيرهـا وتبصـير المجتمـع بحقوقها التى جاء بها الإسلام وأغفلها بعض المسلمين عن قصد أو عن جهل.. تحريرها من التقاليد البالية التى ظهرت فى فترات التراجع الحضارى فى تاريخنـا ، وتحريرهـا أيضـاً مـن التقاليد المستوردة التى أبعدت المرأة المسلمة عن دينهـا وذاتهـا الحضاريـة ، فتفرنجـت فـى زيها وفكرها وسلوكها ..

وقد انشغل الغزالى بقضية تحرير المرأة المسلمة فى مراحل مبكرة فى حياته ، واحتلـت هـذه القضية جانباً من معاركه الفكرية منذ الخمسينات من هذا القرن ، حين حاول أن يبين الموقـف الإسلامى الحقيقى من قضايا المرأة بعيداً عن التفريط أو الإفراط ، فقد رفض في كتابه [من هنـا نعلم] أن تكون المرأة "كبندول الساعة إلى أقصى اليمين تارة وإلى أقصى اليسار تـارة أخـرى ،

ولا يستقر مطلقاً عن الحد الوسط الذى يطلبه الإسلام" ثم قد رصد الوضع الذى آلت إليه المرأة فى العالم الإسلامى فى كتابه "الإسلام والطاقات المعطلة" الذى صدر فى بداية الستينيات، وتتابعت كتاباته التى تؤكد على مكانة المرأة فى الإسلام ، وكيف كانت فى عهد السلف الصالح إنساناً يقوم بواجباته الدينية والدنيوية، وتعرض لقضية تعليمها وعملها ، مؤكداً أنها حقوق منحها إياها الإسلام ، ودعا إلى الموازنة بين عملها فى البيت وعملها خارجه إذا احتاج إليها العمل أو احتاجت هى للعمل ، وفى قضية الحجاب يرى جواز كشف الوجه ، مؤكداً أن ذلك لا يخالف رأى الجماعة ، وإنما يتفق مع آراء الفقهاء والأربعة الكبار . وقد أوضح " إن الإسلام أوجب كشف الوجه في الحج ، وألفه في الصلوات كلها ، أفكان في هذا الكشف في ركنين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة ؟! " وقد استند في هذا الرأى الذى سجله في كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" على ما جاء في القرآن الكريم بقوله : "إذا كانت الوجوه مغطاة ففيما يغض المؤمنون أبصارهم ؟ كما جاء في الآية الشريفة ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ..﴾ [النور : ٣٠] كما استند على ما جاء في السنة النبوية موضحاً أن الغض " يكون عند مطالعة الوجوه بداهة ، وربما رأى الرجل ما يستحسنه من المرأة فعليه ألا يعاود النظر كما جاء في الحديث ، قال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه : " يا على لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة" .

وقد تطور موقف الغزالى من مسألة مشاركة المرأة فى الحياة العامة بدءاً من الستينيات حتى نهاية الثمانينيات ؛ حيث صدر كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" وفيه يدعو الشيخ إلى مشاركة المرأة المسلمة فى الحياة العامة ، مؤكداً أن المرأة المسلمة العفيفة أهلاً للنهوض بأمتها وتحمل أمانة هذا الدين جنباً إلى جنب مع الرجال ، على العكس مما كان عليه الأمر فى الستينيات ، حيث كان الشيخ يؤكد أولوية عمل المرأة داخل بيتها . فنحن نجده فى الثمانينيات بعد طول خبرة واطلاع على أحوال المرأة المسلمة وتقديره للمهمات التى نهضت بها الصحابيات الأوائل يسعى إلى إيجاد توازن بين مسئولية المرأة داخل أسرتها ومسئوليتها تجاه قضايا الأمة (٣٨) .

ورغم أن الشيخ قد أفرد كتابًا لمعالجة قضايا المرأة المسلمة المعاصرة بعنوان " قضايا

المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة " فإنه قد تعرض لهذه القضايا في العديد من كتبه الأخرى فضلاً عن مقالاته وخطبه .

وانتقد بشدة التقاليد التي تقلل من شأن المرأة باسم الحجاب ، فيقول : " باسم الحجاب قامت تقاليد تزدرى المرأة وتؤخرها وترفض منحها الحقوق المادية والأدبية التي أقرها لها الإسلام ، فماتت إنسانيتها على مر القرون ، وتولى كبر ذلك كله متدينون جهلة يحسبون التقوى تجهيل المرأة وإذلالها " (٣٩) .

وكان يقارن دائماً بين حقيقة وضع المرأة في الإسلام ، وبين ما أصابها من تقاليد بالية: " إن أىّ مطالع للقرآن الكريم والسنن الصحاح يرى المرأة جزءاً حيًّا من مجتمع حى ، فهى تتعلم وتتعبد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتجاهد– إذا شاءت– في البر والبحر ، وتؤخذ منها البيعة على معاقد الإيمان والأخلاق وتعارض الحكم أو تؤيده .. إلخ. ودخل التحريف على تعاليمنا وتقاليدنا ، فإذا المرأة كَلٌّ على مولاها أينما يوجهها لا تأت بخير !! " (٤٠) .

وينتقد بشدة الذين يقللون من شأن المرأة ويحاولون تعطيل طاقاتها تمسحاً بستار الدين فيقول : " ولا يزال نفر من علماء الدين يكرهون وجه المرأة ، ويحملونها مسئولية خروج آدم من الجنة كما زعم اليهود في كتبهم ! ويرون الدين إمساك النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت ... أعتقد أن هؤلاء العلماء القاصرين لو كانوا على عهد الرسول ﷺ لطالبوه بطرد السيدتين اللتين حضرتا بيعة العقبة الكبرى ، وقالوا له : ما للنساء وهذه الشئون ..

ولو كانوا موجودين عند فتح مكة لقالوا له : حسبك بيعة الرجال ، وهم يعلمون نساءهم ! أما استخراج النساء للبيعة فقد يكون سبباً في غرورهن وجرأتهن !

بل أعتقد أن هؤلاء العلماء – على المجاز لا على الحقيقة – لو كانوا مع نبى الله سليمان وهو يكتب خطابه لبلقيس ﴿ألا تعلو على وأتونى مسلمين﴾ لقالوا له : عدل هذه الصيغة فإنها تعترف بتوليها منصب الملك ، اكتب بعزلها أولاً ، ثم تفاهم مع الرجال وحدهم !

هذه العقلية المختلة فرضت نفسها طويلاً على دين ا لله ، وبعد أن أعانت أقدار حسنة على زلزلة سلطانهم يستميتون فى إخراج المرأة المسلمة وتعكير مستقبلها بفتاوى مكذوبة على الإسلام" (٤١) .

ولم يترك الغزالى مناسبة إلا وحذر من إنحراف المسلمين عن تعاليم دينهم في معاملة النساء ، فقد عبر عن ذلك في الكثير من خطبه ومقالاته وكتبه ، بل إنه في تقديمه لكتاب الباحث المدقق عبد الحليم أبو شقة (تحرير المرأة في عصر الرسالة) الذى صدر في ستة مجلدات نبه إلى هذه الظاهرة مؤكداً أنه قد شاعت بين المسلمين "روايات ظالمة وأحاديث إما موضوعة أو قريبة من الوضع انتهت بالمسلمين إلى الجهل الطامس والغفلة البعيدة عن الدين والدنيا معاً . كان تعليم المرأة معصية ، وذهابها إلى المسجد محظوراً وكان اطلاعها على شئون المسلمين أو انشغالها بحاضرهم ومستقبلهم شيئاً لا يخطر على بال ، وكان ازدراء الأنوثة خلقاً شائعاً والسطو على حقوقها المادية والأدبية هو العرف المستقر ! " .

ووقف الغزالى في وجه الآراء التي تعوق فاعلية المرأة في المجتمع ، وفند المقولات التى يستند إليها أصحاب هذه الأراء ، ففي تعقيبه على قول خطيب مشهور : رحم ا لله أياماً كانت المرأة لا تخرج إلا ثلاث مرات : من بطن أمها إلى العالم ، ومن بيت أبيها إلى الزوج، ومن بيت زوجها إلى القبر ، فقال الغزالى رداً على هذا الرأى قائلاً : " لا بارك ا لله في هذه الأيام ولا أعادها في تاريخ أمتنا ، إنها أيام جاهلية لا أيام إسلام ، إنها انتصار لتقليد جائرة وليست إمتداد للصراط المستقيم . وتدحرج الأمة الإسلامية إلى العالم الثالث في ميدان العلم والتربية والإنتاج يعود طفل منه كبير إلى هذه التقاليد الزائغة " .

وفي إطار رفضه للأقوال الموضوعة التي يستند إليها البعض في فرض العزلة علي المرأة ، قال أن الحديث الذى يقول (يروى عن السيدة فاطمة بنت رسول ا لله ﷺ : إن المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد ، وأن النبى قد أقر ذلك وضم ابنته إلى صدره قائلاً : ذرية بعضها من بعض) ، هذا الحديث منكر و"لم يذكره كتاب سنة محترم" وقد سجل هذا الرأى فى تقديمه للكتاب المشار إليه ، مؤكداً أن هذا الحديث يخالف ما تواتر من القرآن الكريم والأحاديث الصحاح ، وسيرة النبى وخلفائه الراشدين .

وأفتى الغزالى بجواز توليها رئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء أو أن تكون ملكة ، مؤكداً أن بعض كبار العلماء السابقين قد أجازوا ذلك ، ومنهم ابن جرير الطبرى الذى قال : " إن المرأة يمكن أن تكون إماماً " ، و ابن حزم الذى قال إن المرأة يمكن أن تكون "وزيرة أو حاكم إقليم ، وما تمنع عنه هو الخلافة العظمى" .

أوضح أن هذا الرأى لا يتعارض مع الحديث النبوى الذى يقول : " خاب قوم ولو أمرهم امرأة " قائلاً أن هذا الحديث قد كانت له ملابسات خاصة ؛ " لأن الأمبراطورية الفارسية كانت في حالة احتضار ، وكان أعداؤها يقصدون أطرافها من كل ناحية ، وكانت فى أشد الحاجة إلى قيادة عسكرية أو حاكم وليد شورى عامة ، ينقذ الأمة من ورطتها ..

أما أن ترث الحكم أو الملك فتاة كل مؤهلاتها أنها بنت كسرى فهذا ما لا يعقل ؛ ولذلك اعتبره الإسلام خيبة من الفرس أنفسهم .. ماذا يضيرنا لو تولت الأمر امرأة مسلمة تتمتع بحكمة ومقدرة بلقيس– ملكة سبأ – التى قادت قومها إلى الهدى .. إنها أشرف من الرجل الذى دعته (ثمود) لقتل ناقة صالح"[٤٢].

ومن المهم هنا أن نسجل أن الغزالى ليس من هواة تولى المرأة المناصب العليا ، ولكنه لا يجد مخالفة شرعية في ذلك إذا استدعت الضرورة ، فهو يقول في كتابه المشار إليه " أنى لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة ، فإن الكملة من النساء قلائل ، وتكاد المصادفات تكشفهن ، وكل ما أبغى هو تفسير حديث ورد في الكتب ، ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة أو التى تفهم على غير وجهها ، ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخى " .

فالرجل قال ما يرضى ضميره ليس تعصباً لجنس أو إنتصاراً لمذهب وإنما هو اضطلاع بمسئوليته بنزاهة وقام بدوره في تجديد الفكر الإسلامي .

خامساً : الغزالى والفنون :

تعد قضية موقف الإسلام من الفنون واحدة من أبرز القضايا التى ارتبطت بالكثير من الالتباس والغموض وتعدد الآراء التى تتراوح بين الإجازة والتحريم ، وفى مصر – البيئة

التى عاش فيها الغزالى – تذكر العديد من المرويات التى تشير إلى حرمانية الغنـاء وبعـض الفنون الأخرى ، بخاصة بين شباب الصحوة الإسلامية ، والأمر نفسه ساد فى العديد من الدول العربية والإسلامية ؛ لدرجة أن الإسلام قدم للناس وكأنه يعارض الفنون بـدءاً مـن التصوير الفوتوغرافى حتى الموسيقى والغناء .

من ناحية أخرى كان هذا الموقف الملتبس أحد الزوايا التى يؤتى منهـا الإسـلام ضمـن سلسلة الهجوم عليه ، بخاصة من الخارج ، حتى صـار السؤال حـول الديـن الـذى يحـرم التصوير – ويقصد به الإسلام – أحد أسـئلة الثقافـة العامـة المتكـررة فـى بعـض المـدارس بالدول الغربية .

من هنا تبرز أهمية تصدى الغزالى لهذه القضية وبيان لحقيقة موقف الإسلام من الفنون .

ويمكن القول : إن الغزالى قد ارتكز فى تصديه لهذه القضية على دعوة القرآن الكريـم للإنسان لكى يتذوق الجمال الموجود فى الكون ، ويثبت الغزالى هذا الموقف بقوله : " إن الإيمان الذى يصوغه القرآن فى النفوس ، إنما من أجل أن يرفع به مستوى الإنسان ليكون ذواقاً لما فى آفاق الأرض والسماء من نواحى الجمال .

ولا يتم إيمان الإنسان إلا إذا نظر إلى الكون على أنه هذه الصفحات التى يتجلى فيهـا الجمال الإلهى والمجد الإلهى .. ومن ثم لا نستطيع فـى مجـال الفنـون أن نقـول : إننـا عنهـا غرباء ؛ لأن القرآن ربطنا بها .. فعندما جاء رجـل وقـال للرسـول ﷺ : إننـى أحـب أن يكون ثوبى حسنًا ونعلى حسنًا .. أفهذا من الكبر ؟ فيجيبه قائلاً : لا .. هذا من الجمال ، وا لله جميل يحب الجمال" (٤٣) .

وقد أفاض الغزالى في شرح موقفه من الفنون في ندوة علمية بعنـوان "فلسـفة الفـن في الإسلام" (*) وأشار فيها إلى أن القرآن الكريم قد لفت نظرنا إلى الجمال والفن ، فمثلاً في قولـه تعـالى في سـورة الأنعـام : ﴿ولقـد جعلنـا فـي السـماء بروجـاً وزيناهـا للناظرين﴾[الحجر:١٦] لم ينظر القرآن الكريم إلى الكون على أنه مجرد مادة وإنما نجد أن " السماء وما يدور فيها من كواكب وما ينشر فيها من أفلاك ، لم يلفت النظر إليهـا علـى

أنها أجرام تسير وانتهى الأمر ، بل ينضم إلى هذه الكواكب المسيرة وفق قانون دقيق ، أنها زينة للناظرين " .

ويؤكد أن القرآن يلفت نظرنا إلى هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النحل:٥ -٦] فالأنعام يتصورها الجزار على أنها لحم ، بينما يتصورها البعض على أنها طاقة ولكن نجد هنا قوله تعالى ﴿ لكم فيها جمال ﴾ ويتأكد هذا المعنى عندما يتحدث القرآن عن بقية مخلوقات ا لله : ﴿أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم تنبتوا شجرها﴾[النمل:٦٠] .

" وعندما أقرأ قوله تعالى في سورة ق : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددنها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ أجد أن النظر البليد إلى الأرض والسماء دون إحساس بالجمال هو نوع من المعصية يجب أن نتوب عنه " .

وأوضح في هذه الندوة أن" العقل الإسلامى في نظرته إلى الجمال والفن عقل طبيعى ، لأن الإسلام دين الطبيعة (يقصد الفطرة) وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة ا لله التى فطر الناس عليها ﴾ .. مع ملاحظة أن الفطرة قد تمرض . ولكن الفطرة العامة سليمة . .فالعقل الإسلامى سار بالفطرة مع فنون الجمال ، لكنه قام بضبطها بالفقه الصحيح" .

ويثبت الغزالى أن هذا الإحساس بالفن والجمال قد ظهر لدى المسلمين في عدة مجالات منها اللغة العربية ففى " أثناء تدوين اللغة كان لابد من رعاية الجمال ، فعلوم البلاغة والبيان والبديع ، والمحسنات البديعية والإستعارات والطباق والجناس هى الجمال نفسه ..

وقد ظهر الفن في ناحية التصوف ، فالصوفية رفضوا ما يقال من أن الغناء حرام "

وقد عرض الغزالى رأيه بوضوح فى قضية الغناء من خلال هذه الندوة ، فقال : "لابد من وضع ضوابط لعملية التحريم والتحليل فالغناء يتكون من كلمة ولحن وأداء ، فأي منهم يشتمله التحريم ؟ هل الكلمة التى قد تكون سخيفة وقد تكون حسنة ؟ لقد رفضنا من على محمود طه قوله : (ليلنا خمر) بينما قبلنا منه قوله (أيها العربي الأبى أرى اليوم موعدنا لا غدا)

فالكلمة لها أثر وأنا أسمع وأتأثر وأنقد فقد سرنى فى مقطع من مقاطع أغنية الكرنك أن أشعر أن موسيقى محمد عبد الوهاب تصور الزمن والتاريخ ومضى الأيام عندما يقول (أين أمون وصوت الراهب . أين أطلال حب الغالب).. فالموسيقى تنقلنا إلى جو المحراب.. وإلى أشياء كثيرة ، ولكن عبد الوهاب فشل فشلاً هائلاً عندما لحن قصيدة شوقى (في دمشق) في قوله (وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق) فقد أعطت الموسيقى لنا انطباعاً بأن الحرية فتاة اسمها حورية بينما كان يحتاج إلى موسيقى تعطينا انطباعاً أن هناك دقات على باب مغلق .. أما الصوت فله أثر كبير فصوت أم كلثوم أكثر رجولة من صوت عبد الحليم حافظ وعبد الوهاب رغم أنها إمرأة "

ويؤكد الغزالى أن الأثر النفسى للغناء هو المعيار فيقول في هذه الندوة . " هناك عدة أشياء تتدخل في الحكم على الأغنية وكونها تصح أو لا تصح ، أما الحلال والحرام فلا يتعلق بالنصوص ، ولكن بالآثار النفسية .. فنحن نريد فناً يخلق بطولة و رجولة وذوقاً رفيعاً وإحساساً عالياً وحزناً رقيقاً "

وقد رد الغزالى على الحجج التى اعتمد عليها الذين قالوا بتحريم الغناء ، مستنداً على قول ابن حزم : "وبيع الشطرنج والمزامير والعيدان والمعازف والطنابير حلال كله ومن كسر شيئا من ذلك ضمنه ، إلا أن يكون صورة مصورة– تمثالاً مجسما– فلا ضمان على كاسرها ، وتضمين المعتدى على هذه الأشياء واجب ، لأنها مال من مال مالكها "

كما استعرض الغزالى فى كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" الأحاديث

التى نسبت إلى الرسول والتى يستند إليها البعض فى تحريم الغناء ، وذكر ردود ابن حزم على هذه الأحاديث ونعرض فيما يلى لأمثلة منها:

*عن عائشة أم المؤمنين رضى ا لله عنها– عن النبى ﷺ قال : " إن ا لله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها " قال ابن حزم وهو يناقش سند هذا الحديث : فيه من الرواة " ليث " وهو ضعيف ، وسعيد بن أبى رزين وهو مجهول .

*عن على بن أبى طالب قال رسول ا لله ﷺ : إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ... منهن "واتخذوا القينات والمعازف ، فليتوقعوا عند ذلك ريحا حمراء ومسخا وخسفا" .

قال ابن حزم فى رواة هذا الحديث: لاحق بن الحسين وضرار بن على والحمصى مجهولون وفرج ابن فضالة متروك ..

*عن معاوية قال: " نهى رسول ا لله ﷺ عن تسع ، وأنا أنهاكم عنهن الآن ، فذكر فيهن الغناء والنوح" قال ابن حزم: فى رواته محمد بن المهاجر ضعيف ، وكيسان مجهول!.

* عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع النبى ﷺ يقول : "يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤسهم بالمعازف والقينات يخسف ا لله بهم الأرض" .

قال ابن حزم وهو يناقش السند : معاوية بن صالح ضعيف ، وليس فيه أن الوعيد المذكور إنما هو على المعازف ، كما أنه ليس على اتخاذ القينات ، والظاهر أنه على استحلالهم الخمر ، والديانة لاتؤخذ بالظن .

* وعن أنس بن مالك قال: قال رسول ا لله: " من جلس إلى قينة فسمع منها صب ا لله فى أذنيه الآنك يوم القيامة" والآنك هو الرصاص المذاب .

قال ابن حزم : هذا حديث موضوع فضيحة ، ماعرف قط عن طريق أنس !!

* وعن مكحول عن عائشة قالت: قال رسول ا لله:" من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه" ..

قال ابن حزم : مكحول لم يلق عائشة ، وهاشم وعمر الراويان مجاهيل !

وهناك حديث يقول : " نهى رسول ا لله ﷺ عن صوتين ملعونين صوت نائحة وصوت مغنية" وسنده لاشيء ! (٤٤) .

وتعد أهم رواية وردت فى هذا المجال – فى رأى الغزالى– هى مارواه البخارى عن ابى مالك الأشعرى أنه سمع رسول ا لله ﷺ يقول : " ليكونن من أمتى قوم يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف" .. وفى تعليقه على هذه الرواية قال الغزالى أن معلقات البخارى يؤخذ بها ، لأنها فى الغالب متصلة الأسانيد ، لكن ابن حزم يقول : إن السند هنا منقطع لم يتصل ما بين البخارى وصدقة بن خالد راوى الحديث .. ولعل البخارى يقصد أجزاء الصورة كلها ، أعنى جملة الحفل الذى يضم الخمر والغناء والفسوق ، وهذا محرم بإجماع المسلمين (٤٥) .

كما أكد الغزالى مستنداً أيضاً إلى رأى ابن حزم – أن الآية القرآنية التى تقول : "ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل.." لا تقصد الغناء.. (٤٦) .

ثم انتهى إلى حكم واضح فى هذه القضية وهو : " أن الغناء كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح" مشيراً إلى أن هناك أغان آثمة لاتسمع فيها إلا صراخ الغرائز أو ضجيج الرغبات الحرام ، فى حين أن هناك أغان سليمة الأداء شريفة المعنى قد تكون عاطفية وقد تكون دينية وقد تكون عسكرية تتجاوب النفوس معها ، وتمضى مع ألحانها إلى أهداف عالية.. (٤٧) .

ولم يحرم الغزالى من الفنون التشكيلية إلا النحت مشيراً إلى أن النحت كان جائزاً فى الماضى ، ودليل جوازه – كما ذكره الأصوليون – أن ما هو محرم فى ذاته لا يباح لدين من الأديان ، فمثلاً لا يمكن لدين من الأديان – من آدم إلى محمد عليهما السلام – أن يبيح الزنا ، فى حين أن سيدنا سليمان كان يصنع التماثيل ، ولكن عندما أقبل الناس على عبادة التماثيل حرمت ، أى أنها حرمت لغير ذاتها ، ومن أجل شىء يتصل بها ، فهل انقضى هذا الشىء أم لا ؟! إننى أعتقد أن وعى البشر لا يطمئن إليه ، فالناس لا تزال فى بعض البلاد تعبد البقر!"(٤٨).

هذه محطات رئيسة اخترنا أن نتوقف عندها كنماذج واضحة لبيان إسهامات الغزالى فى إصلاح الفكر الإسلامى وتجديده ، ولكن لا شك أن هذه الإسهامات لم تقتصر على المجالات الخمسة التى توقفنا عندها ، وإنما امتدت هذه الروح التجديدية إلى مختلف الميادين ، فقد حاول الشيخ بصدق مواجهة الذات الإسلامية التى تشوهت بالتخلف الموروث وبالاستلاب التغريبى ، بهدف تجديدها بالغذاء الإسلامى الصالح والصحيح وتجديد العقل وتصفية رؤيته ، وتجديد القلب وترقيق مشاعره ، وإقامة علاقة التكامل – التى امتاز بها الإسلام– بينهما ، وفى مواجهة كل هذه التحديات كتب الغزالى (خلق المسلم) و(عقيدة المسلم) و(التعصب والتسامح) و(جدد حياتك) و(فى موكب الدعوة) و(فقه السيرة) و(ليس من الإسلام) و(هذا ديننا) و(من معالم الحق) و(كيف نفهم الإسلام؟) و(نظرات فى القرآن) و(مع الله) و(دراسات فى الدعوة والدعاة) و(معركة المصحف) و(كفاح دين) و(تأخر العرب والمسلمين) .. وغيرها.. كثير من الكتب والدراسات التى استهدفت تزكية الذات والنفس الإسلامية بالإسلام .

وفى مواجهة الجمود ، والحرفية النصية التى تغض من شأن ملكة العقل ، فتقلل عزم المسلمين تجاه التحديات المعاصرة ، وتكرس التخلف الموروث .. فى مواجهة هذا الجناح من أجنحة التحدى الحضارى ، قدم المشروع الفكرى للشيخ الغزالى العديد من الإسهامات ، فصولاً فى كتب – كما فى (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) – وكتبًا أفردها لهذه المهمة، يأتى فى مقدمتها : (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) الذى أثار ولا يزال معركة فكرية خصبة فى صفوف الإسلاميين ، على امتداد وطن الإسلام ! [٤٩] .

وفى مواجهة تخلف المسلمين لم يكف الغزالى عن الدعوة إلى التقدم ومحاربة التخلف ، واللحاق بموكب العالم المتطور عن طريق التفوق فى علوم الكون والرياضيات ، واستخدام التكنولوجيا ، وحسن الإدارة والتنظيم والانتفاع بأقصى ما عند الغربيين فى هذه الجوانب، واجتناب النواحى السلبية فى أخلاقياتهم وسلوكياتهم ، كإعراضهم عن الله واليوم الآخر ، والتحلل الجنسى ، وطالب بتجنيد طاقات الأمة تحت راية الإيمان للعمل والإنتاج من أجل التقدم ، واعتبار ذلك لونًا من العبادة لله تعالى ، وضربًا من الجهاد فى سبيله .

ورغم أن الشيخ قد أفرد كتابًا لهذه القضية وهو "سر تـأخر العـرب والمسـلمين" فإنـه كان مشغولاً بها فى العديد من كتبه ومقالاته ، ويعتبر أن تخلف المسلمين وتقاعدهم عـن الأخذ بالعلوم الحديثة ، خيانة للإسلام ، ففى كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسـلمين) يقول بمرارة: " إننا – نحن المسلمين والعرب – خنا ديننا خيانة فاحشة ، فلم نحسن النظـر فى شىء مع صراخ الوحى حولنا ﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلـق ا لله من شىء..﴾ [الأعراف:١٨٥] .

وكانت النتيجة أن جاء من وراء الحدود – حدود الإسلام – من استخرج النفط من أرضنا ، ومن أقام الجسور على أنهارنا ، ومن صنع لنا حتى الإبرة لنخيط بها ملابسنا" (٥٠).

هوامش الفصل الرابع

إسهامات الغزالى فى إصلاح الفكر الإسلامى

١- عمر عبيد حسنة - تقديم- فى : طه جابر العلوانى : " إصلاح الفكر الإسلامى بين القدرات والعقبات" فيرجينيا : المعهد العالى للفكر الإسلامى ، ١٩٩١ ، ص ٣-٤ .

٢- طه جابر العلوانى : " إصلاح الفكر الإسلامى بين القدرات والعقبات " ص١٢ .

٣- عمر عبيد حسنة ومحمد الغزالى : كيف نتعامل مع القرآن ؟ " فيرجينيا : المعهد العالى للفكر الإسلامى ، ١٩٤١ ص١٢-١٣ .

٤- يوسف القرضاوى : " كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟ " المنصورة : دار الوفاء ، ١٩٩٠ ص ٢٨-٣٠ .

٥- محمد الغزالى : " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ص ٨-٩ .

٦- المرجع السابق ، ص٩ .

٧- محمد الغزالى : " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" ص ١٠ .

٨- محمد الغزالى : "نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم" الأجزاء العشرة الأولى" القاهرة : دار الشروق ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص٥ .

٩- المرجع السابق ، ص ٥ .

١٠- المرجع السابق ، ص ٦ .

١١- المرجع السابق ، ص ٥ .

١٢- المرجع السابق ، ص ٦ .

١٣- المرجع السابق ، ص ٧-٩ .

١٤- عمر عبيد حسنة ومحمد الغزالى : " كيف نتعامل مع القرآن؟ "ص ٢٦ .

١٥- المرجع السابق ، ص ٥٣-٥٤ .

١٦- المرجع السابق ، ص ٥٣-٥٤.

١٧- المرجع السابق ص١٥٢-١٥٣

١٨- محمد الغزالى : " الإسلام فى وجه الزحف الأحمر" القاهرة : دار الريان للتراث ، ط٩ ، ١٩٨٧ ، ص ٣ .

١٩- المرجع السابق ، ص ٥٤-٥٥ .

٢٠- المرجع السابق ص ٩٤.

٢١- المرجع السابق ص ٩٤.

٢٢- المرجع السابق ، ص١٦٩.

٢٣- المرجع السابق ، ص ٦٦-١٦٧.

٢٤- محمد الغزالى: " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ص١٥-١٦.

٢٥- د. يوسف القرضاوى : " الشيخ الغزالى كما عرفته .. رحلة نصف قرن". المنصورة : دار الوفاء ، ١٩٩٧ ، ص١٢٢- ١٢٣.

٢٦ - محمد الغزالى:"السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ص١٤-١٥.

٢٧- المرجع السابق ، ص١٥.

٢٨- المرجع السابق ص ١٥ ، ص ٢٤.

٢٩- محمد الغزالى : " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين " ص٦٣ .

٣٠- د. يوسف القرضاوى ، ص ١٢٣-١٢٤

٣١- محمد الغزالى : " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ص ٦٤ .

٣٢- محمد يونس : "الشيخ الغزالى فى ندوة دينية" الأهرام ١٩٩٢/١٢/٢٥ صفحة الفكر الدينى .

٣٣- المرجع السابق .

٣٤- المرجع السابق .

٣٥- محمد الغزالى : " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"ص٨٢ .

٣٦- المصدر السابق ، ص ٨٣.

٣٧- المصدر السابق ، ص ٨٥.

٣٨- هبة رءوف: " الحق المر: الشيخ الغزالى وقضايا المرأة" ، مجلة إسلامية المعرفة ، مرجع سابق ، ص٩٥ .

٣٩- محمد الغزالى : "دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" ، مرجع سابق ، ص١٥٧ .

٤٠- المرجع السابق ، ص ١٥٧.

٤١- المرجع السابق ، ص ١٥٧- ١٥٨.

٤٢- محمد يونس : " حوار ساخن مع الشيخ محمد الغزالى" : القاهرة ، مجلة "نصف الدنيا" العدد ٢ ، ١٩٩٠/٢/٢٥م ، ص ٧٥.

٤٣- محمد الغزالى فى مقابلة مع المؤلف نشرت فى تقرير بمجلة "نصف الدنيا" بعنوان "الفن ليس غريباً عن الإسلامي " بتاريخ١٠/٣/١٩٩١ ص٧١-٧٢.

* الندوة عقدها مكتب المعهد العالمى للفكر الإسلامي بالقاهرة في ١٩٨٩/٢/٢٢ ، وشارك فيها الدكتور جمال عطية وأدارها الدكتور محمود حمدى زقزوق ، ونشرها المعهد بعنوان (فلسفة الفن في الإسلام).

٤٤- محمد الغزالى : " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ص ٦٥- ٦٩.

٤٥- المرجع السابق ، ص ٦٩- ٧٠.

٤٦- المرجع السابق ، ص ٧٠.

٤٧- المرجع السابق ، ص ٧٠.

٤٨- محمد الغزالى فى مقابلة مع المؤلف نشرت فى تقرير بمجلة "نصف الدنيا" بعنوان "الفن ليس غريباً عن الإسلام" بتاريخ ١٠/٣/١٩٩١ ص ٧١-٧٢ .

٤٩- محمد عمارة : "الشيخ الغزالى الموقع الفكرى والمعارك الفكرية" ص٢٦-٢٨ .

٥٠- محمد الغزالى : " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" ص١٨١ .



الفصل الخامس

تجربة الغزالى فى الدعوة

(تجربة الغزالى الدعوية فى ميزان علم الاتصال)

لعل المنطلق الأساسى فى تجربة الغزالى الدعوية هو أنه "داعية بالمفهوم الواسع" وليس "واعظاً بالمفهوم التقليدى" أى أنه داعية يرى أن وظيفته هى إيقاظ وعى الجماهير بحقائق الإسلام باعتباره دين الحياة ، وتزكية النفس وتجديد الإيمان بالله بالقلب والعقل معاً ، وليس واعظاً تقليديًا تنحصر مهمته فى تذكير الناس بيوم الحساب وتعريفهم بأهوال القيامة وعذاب القبر وجحيمه .

فالشيخ لم يستخدم أسلوب الوعظ التقليدى فى دعوته ولم تكن خطبه مجرد نقل عن متون قديمة ، وإنما استصحب القرآن الكريم واستأنس بالهدى النبوى بعقلانية مؤمنة وفطرة سوية ونفس مطمئنة ، واستعان بما انتهى إليه العقل البشرى من منجزات علمية ، واتسعت بصيرته لترى عالمه الإسلامى بعين فاحصة ناقدة تميز بين حقائق الدين والتقاليد الموروثة ، لكل ذلك لم يمارس الغزالى الوعظ بالمفهوم التقليدى، وإنما الوعظ فى رأيه هو " أخف الواجبات التى يتطلبها الإسلام فى عصرنا [1] .

ويعتقد أن الجهد الحقيقى المطلوب هو " تحريك قافلة الإسلام التى توقفت فى وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر" [2].

والتركيبة النفسية للشيخ الغزالى كانت مسئولة إلى حد كبير عن هذه الميزة التى جعلته "داعية" وليس "واعظاً".

فيقول الشيخ عن نفسه : "لم أكن أتخيل فى طفولتى ولا يفاعتى أننى سأكون يوماً ما داعية إلى الدين (يقصد الداعية بالمفهوم التقليدى) وما حسبت ولا حسب القريبون منى أننى أصلح للعمل فى هذا الميدان الذى تواضع الناس على ترشيح أقوام معينين له، يمتازون بطراز خاص من الخلق والسلوك ، ويضفى المجتمع عليهم تقاليد دقيقة تتحكم فى بيئاتهم وهيئاتهم، وسائر مناحى حياتهم .

إننى لا أطيق التزمت ، ولو تكلفته ما أحسنته ، وأحب أن أسترسل مع سجيتى فى أخذ الأمور وتركها ، وقلما أكترث للتقاليد الموضوعة ، والمفروض أن اللازمة الأولى فى رجال الدين- كما يسمون- أنهم أهل توقر وسكون.

وأنا أجنح إلى المرح عن رغبة عميقة ، وأتلمس الجوانب الضاحكة فى كل شىء، وأود لو استطعت أن أعيش هاشًا باشًا ، والمفروض أن الناس يتوقعون من أمثالنا تواصل الأحزان وإطراق الكآبة ، حتى يكون تذكيره بالآخره ، وإنذاره للعصاة بالنار ، متفقاً مع مخايل الجد والعبوس التى لا تفارق وجهه أبداً !! " (٣) .

وإذا أخضعنا تجربة الشيخ الغزالى فى مجال الدعوة للبحث العلمى وفق مناهج علم الاتصال بالجماهير ، سوف نجد أن الشيخ يطبق بفطنته وعلمه وثقافته أحدث النظريات العلمية التى انتهى إليها علماء الإعلام والاتصال . وقبل أن نعرض لتجربة الغزالى الدعوية وفقاً لمعايير هذا العلم نشير فى عجالة لبعض المفاهيم الرئيسية فى مجال الاتصال ، فمصطلح الاتصال هو المصطلح الرئيسى الذى تندرج تحته كافة أوجه الانشطة الإعلامية والدعائية والدعوية والإعلانية .

والتعريف العلمى للاتصال هو : "النشاط الذى يستهدف تحقيق العمومية أو الانتشار لفكرة أو موضوع أو قضية، عن طريق انتقال المعلومات أو الأفكار من شخص أو جماعة إلى أشخاص أو جماعات أخرى باستخدام رموز ذات معنى موحد ومفهوم بنفس الدرجة لدى كل من الطرفين " (٤) .

وتندرج تحت هذا التعريف أنشطة عديدة مثل "الإعلام والدعوة ، والدعاية ، والعلاقات العامة ، والحرب النفسية " ، وقد تختلف هذه الأنشطة فى أهدافها ومضامينها، ولكنها جميعاً تعد عمليات اتصال بالجماهير .

وعملية الاتصال بالجماهير تحتوى على خمسة عناصر رئيسية هى : المرسل ، والرسالة، والوسيلة ، والمستقبل ، والأثر .

وينقسم الاتصال بالجماهير إلى نوعين رئيسيين :

الأول : الاتصال المباشر أو الاتصال المواجه ، وهو النوع الذى يكون فيه المرسل فى مواجهة المستقبل مباشرة مثل "خطبة الجمعة" .

الثاني: الاتصال الجماهيري : وهو النوع الذى لا يكون فيه الاتصال بين المرسل والمستقبل مباشرة ، وإنما يتم من خلال وسيلة اتصال ، مثل الإذاعة أو التليفزيون أو الصحيفة أو الكتاب..

وجميع أنشطة الاتصال سواء أكانت إعلاماً أو دعوة أو إعلاناً أو دعاية يمكن أن تستخدم هذين النوعين من الاتصال .

ومن المهم هنا التأكيد على أننا عندما نُخضع تجربة الغزالى الدعوية لمناهج ونظريات الإعلام والاتصال بالجماهير ، فإننا لا نقلل من شأن الدعوة ؛ لأن ممارسة الدعوة إنما هو نشاط إعلامى أو اتصالى ، ولكن حتى تتضح المفاهيم فسوف نعرض لمفهومى الإعلام والدعوة..

الإعلام كما يعرفه علماء الاتصال هو : " كافة أوجه الأنشطة الاتصالية التى تستهدف تزويد الجمهور بالحقائق والمعلومات السليمة عن القضايا والموضوعات وماجريات الأمور بطريقة موضوعية بما يؤدى إلى خلق أكبر درجة كاملة من المعرفة والإدراك لدى فئات جمهور المتلقين للمادة الإعلامية ، وبما يسهم فى تنوير الرأى العام وتكوين الرأى الصائب لديه فى الوقائع والقضايا المثارة " (٥) .

أما مفهوم الدعوة فيختلف العلماء فى تعريفه ، ويرجع هذا الاختلاف إلى أن بعض العلماء يطلق كلمة الدعوة على "الدين" نفسه ، وبعضهم يطلقها على عملية نشره، غير أن هناك فرقاً بين هذين المعنيين، فالتعريف الاصطلاحى للدعوة التى هى بمعنى النشر والبلاغ يغاير تماماً الدعوة التى يراد بها الدين ؛ لأن التعريف الأول يعرفها كعلم مثله مثل سائر العلوم الإنسانية، له موضوعه وخصائصه وأهدافه ، أما التعريف الثانى أى الذى يعنى الدين فهو يقصد الإسلام بجميع تعاليمه وأحكامه ، وإن كان هناك بعض من العلماء قد عرف الدعوة بتعريف يمزج بين مفهوم الدين ومفهوم الدعوة ، ومن العلماء من قصر تعريف الدعوة على بعض جوانبها ولا يزال هناك من يعرف الدعوة الإسلامية بتعريفات جديدة يرى أنها أدق وأشمل ، وتجمع بين مراحل الدعوة التبليغية والتكوينية والتنفيذية

مستخلصاً المعنى الاصطلاحي للدعوة من معناها اللغوى وهو الحث على الشيء والسوق إليه- فيرى الدكتور محمد أبوالفتوح البيانونى أن التعريف الأدق للدعوة (هو تبليغ الإسلام للناس وتعليمه إياهم وتطبيقه فى واقع الحياة) [٦] .

وإذا كانت الدعوة تستهدف نشر مفاهيم الإسلام وحقائقه على الناس، فإن الإعلام والدعوة يحملان معنى واحداً ، وإن تميزت الدعوة بأنها تحمل مضامين إسلامية.

ويضع علماء الإعلام عدة شروط لنجاح عملية الاتصال من أبرزها :

أولاً : فيما يتعلق بالمرسل أو القائم بالاتصال- أى الشخص أو الأشخاص الذين يقومون بتوصيل الرسالة الاتصالية- يحدد خبراء الاتصال عدة عناصر ينبغى أن تتوافر فى المراسل، من أهمها :

١- المصداقية ؛ حيث تؤكد بحوث الاتصال أن هناك علاقة طردية بين مصداقية المرسل ، وقدرته على الإقناع بالرسالة التى يحملها أو يبثها ، حيث تزداد درجة اقتناع المتلقى كلما كان المرسل يتمتع بمصداقية عالية .

٢- التمكن والإلمام التام بالموضوع الذى يتحدث فيه المرسل، فهذا يساعده على توصيل رسالته بوضوح ويسر .

٣- الاقتراب من الجمهور ومعرفة خصائصه وظروفه .

فكلما كان المرسل مماثلاً للجمهور طبقياً أو اجتماعياً كلما تزايدت قدرته على الوصول إليهم ، كما تتزايد فرص نجاح المرسل كلما تزايدت معرفته بخصائص الجمهور الذى يتوجه إليه برسائله .

ثانياً : فيما يتعلق بالرسالة ، يضع خبراء الاتصال عدة شروط ينبغى توافرها لنجاح عملية الاتصال ، من أبرزها : وضوح مضمون الرسالة ، وبساطة الأسلوب الذى تقدم به، واحتواؤها على حقائق ومعلومات متناغمة ، وتضمينها لحجج منطقية وأخرى

عاطفية، ومخاطبتها لعقل الجمهور ووجدانه ، فالرسالة تتصل وجدانياً وجمالياً بنفس القدر الذى تتصل به حقائقياً ومنطقياً ، كما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أهمية المضمون الدلالى للرسالة إلى جانب المضمون العقلانى ، فضلاً عن أن الاتصال الوجدانى له درجة دوام أكبر من الاتصال القائم على عرض الحقائق المنطقية فقط التى يحتمل أن تنسى بسرعة إذا لم يتبين المتلقى أنها ذات فائدة ، أو إذا لم يتعاطف معها .

ويشير خبراء الاتصال إلى أهمية ترتيب مضمون الرسالة وتحديد موقع الحجج القوية فيها ، وينصحون بالبدء بالحجج والدعاوى القوية فى الرسالة التى تُبث عبر وسائل الإعلام الجماهيرية لجذب الانتباه وإثارة الاهتمام ، حيث تقل احتمالات قراءة كل الرسالة أو سماعها أو مشاهدتها، بعكس الاتصال الشخصى (المباشر) الذى يصلح له أسلوب التصاعد بدءاً بعرض الدعاوى والحجج البسيطة وانتهاء بعرض الدعاوى والأسانيد القوية التى يفضل أن تختتم بها الرسالة أو الحديث الشخصى [٧] .

كما ينصحون بأن تكون كمية المعلومات المتضمنة فى الرسالة مناسبة، مؤكدين أن المعلومات التى تقل عن القدر الملائم، قد لا تجيب عن الأسئلة المثارة فى ذهن المتلقى. ويمكن أن تؤدى إلى عكس الهدف المنشود وعلى النقيض من ذلك، فإن المعلومات الزائدة قد لا تتكامل بصورة كافية فى نظام المعرفة الخاص بالمتلقى ، وقد لا تكون مترابطة بدرجة كافية فى جهازه الإدراكى ، ويحتمل أن تحدث لديه درجة من البلبلة والتشتت تؤثر على فعالية الاتصال [٨] . خاصة وأن الجمهور عادة ينسى معظم الرسالة والإتصالية ، ومن ثم فإن الأثر المستهدف للاتصال يتحقق من خلال ترتيب المعلومات وتنظيمها بشكل موجز . كما ينبه علماء الاتصال إلى أهمية أن تكون الرسالة ثنائية أى تتضمن عناصر إيجابية وسلبية ، بخاصة عندما تكون موجهة إلى جمهور ذى درجة تعليم عالية [٩] .

ولاشك أن هذه الشروط تختلف حسب طبيعة الموقف الاتصالى من ناحية ونوع الاتصال وما إذ كان مباشراً أو جماهيرياً من ناحية أخرى .

وإذا طبقنا هذه النظريات والشروط التى وضعها العلماء لنجاح عملية الاتصال

وتحقيقها للأثر المستهدف على تجربة الغزالى فى ميدان الدعوة فإنه سوف يتضح لنا جانب من أسباب نجاح الغزالى كداعية استطاع أن ينفذ إلى قلوب الجماهير .

فعلى الرغم من أن ممارسته للدعوة كانت هى المهنة والعمل الذى يقتات منه ، ورغم أنه قضى معظم حياته موظفاً فى مجال الدعوة بوزارة الأوقاف المصرية أو معاراً فى بعض الجامعات والمراكز العلمية بالدول العربية فإنه لم ينظر أبداً للدعوة باعتبارها مجرد وظيفة ، وإنما كان يؤمن دائماً بأنه يؤدى رسالة جليلة ، فهو يعتبر نفسه كداعية "رجلاً من الدعاة إلى ا لله، وهمزة وصل بين الأرض والسماء" .

وهو فى أدائه لهذه الرسالة ليس مجرد مرسل ، وإنما يدرك مختلف أبعاد عملية الاتصال (مرسل، ورسالة ، ومستقبل ، وأثر) .

فالشيخ الغزالى مارس فى تجربته الدعوية عملية الاتصال بنوعيها: الاتصال المباشر من خلال خطبه ودروسه ولقاءاته المتعددة بالجماهير ، والاتصال الجماهيرى (غير المباشر) من خلال كتبه التى بلغت ثمانية وخمسين ٥٨ كتاباً ، ومقالاته العديدة فى الصحف ، ومنها مقالان ثابتان الأول بعنوان (هذا ديننا) الذى كان ينشر أسبوعيا فى صحيفة (الشعب) المصرية ، والآخر بعنوان (الحق المر) الذى كان ينشر أسبوعياً فى جريدة (المسلمون الدولية) التى تصدر من لندن ، بالإضافة إلى مئات الأحاديث التى أجريت مع فضيلته ، ونشرت فى عشرات الصحف والمجلات والمحطات الإذاعية والقنوات التليفزيونية. وهو قبل ذلك كتب فى شبابه المبكر مقالات صحفية فى مجلات: (الإخوان المسلمون) و (الدعوة) و(لواء الإسلام).

وفى ممارسته لهذين النوعين من الاتصال تحلى بالصفات والشروط التى وضعها خبراء الاتصال والإعلام لنجاح العملية الاتصالية ، وهو لم يرتب لذلك ، أى أنه لم يدرس نظريات الإعلام والاتصال بشكل أكاديمى بهدف استخدامها فى نجاح عمله، وإنما تحلى بهذه الصفات واستخدامها بفطنته وخبرته وعلمه وثقافته وبتكوينه الشخصى.

وإذا بحثنا عن شروط ومقومات نجاح رجل الاتصال – المشار إليها– عند الغزالى نجد

أنها قد توافرت لدى الشيخ الجليل، وذلك على النحو التالى:

أولاً : المصداقية :

وقد لازمت هذه الصفة الغزالى طوال حياته ، وتأكدت خلال تجربتـه ، فالصدق سمة أساسية فى تكوينه الشخصى ، بل تشكل إلى جانب الغيرة على الإسلام والوقوف إلى جانب الحق مفتاح شخصيته ، ومواقفه عبر تجربته الطويلة تؤكد ذلك ، فموقفه أثناء اجتماع المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عام ١٩٦٢ معروف.

فعندما خطب الرئيس المصرى جمال عبدالناصر أمام هذا المؤتمر وتعرض لقضية مساواة المرأة بالرجل فى كل الأمور، قام الشيخ الغزالى -وهو عضو فى المؤتمر- ليعرض وجهة النظر الإسلامية ، وطالب بالتزام شرع الله فيما يخص الرجل والمرأة، خاض هذا الموقف فى وجه رئيس الجمهورية فى وقت لم يكن فيه مسموح بالمعارضة، وترتب على هذا الموقف عاصفة من الهجوم على الغزالى فى الصحف المصرية. ولكنه ثبت على موقفه.

وقد عارض الشيخ قانون الأحوال الشخصية الذى صدر فى منتصف السبعينيات متضمناً بنوداً اعتبرها علماء الدين مخالفة للشريعة، وقد ندد بهذا القانون أمام وزير الاوقاف الدكتور عبدالمنعم البرى، وفى خطبة الجمعة، وترتب على هذا الموقف أن منع الغزالى من الخطابة ، وتم نقله من جامع عمرو بن العاص إلى جامع صلاح الدين بالقاهرة.

إلى جانب ذلك هناك العديد من المواقف ناصعة البياض التى أسهمت فى تأكيد المصداقية التى تحلى بها الغزالى ، وكانت على رأس عناصر نجاح تجربته كداعية ومجدد، واستطاع بهذا الصدق أن يلقى قبولاً منقطع النظير على امتداد أمته العربية والإسلامية.

ثانياً : ثقافته وإلمامه بموضوع رسالته :

الإسلام بمحتواه الكبير قرآناً وسنة وفقهاً وتاريخاً وعقيدة هو محتوى الرسالة التى كرس الغزالى نفسه لتبليغها للناس وتجليتها وبيان أبعادها وإزالة اللبس الذى يحيط بها،

وقد أعد نفسه لهذه المهمة الجليلة، فتكونت لديه مرتكزات للفكر الدعوى، من أبرزها:[١٠].

أولاً : القرآن الكريم: وهو المصدر الأول للشيخ، كان يعايشه تالياً ومتدبراً وشارحاً، ومن سمع الشيخ أو قرأ كتبه ومقالاته، منذ فجر شبابه علم مدى حفاوته بالقرآن وتذوقه لأسرار بيانه، وتفهمه لأغوار معانيه، وحسن استشهاده به، ووجد له نظرات ووقفات مع الآيات والسور، تدل على أنه ابن القرآن حقاً.

ثانياً : السنة النبوية: وهو يقتبس من مشكاة النبوة وينهل من معين الرسالة، بما يوضح معانى القرآن، ويعمق مدلولاتها، ويفصل ما أجمله، ويعطى الأمثلة والصور التطبيقية التى حفلت بها السنة لشرح القرآن وبيانه نظراً وعملاً.

ثالثا: التاريخ الإنسانى العام ، والإسلامى الخاص، وقمته السيرة النبوية، فالشيخ قارئ جيد للتاريخ مدرك لوقائعه الحاسمة، وأحداثه الكبرى، ومراحله المتلاحقة وبخاصة التاريخ الإسلامى ، وهو يحسن توظيف التاريخ ووقائعه ومواقف أبطاله فى خدمة دعوته وتبليغ رسالته .

رابعاً: الثقافة العامة : الثقافة الدينية ، والثقافة الإنسانية ، فقد تخرج الشيخ فى كلية أصول الدين ، وهى كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة : التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه . وكان الشيخ أزهرياً متمكناً متفوقاً ، وأكد ذلك بدراسته فى تخصص الدعوة والإرشاد ، ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة طوال حياته فى مختلف حقول المعارف .

خامساً : فقه الواقع عن طريق المعايشة والاطلاع، سواء كان واقع المسلمين أو واقع القوى المعادية لهم، الواقع المحلى (المصرى) والواقع الإقليمى (العربى) ، والواقع الإسلامى (واقع البلاد الإسلامية) والواقع الدولى (خارج عالم الإسلام) .

هذا الواقع كتاب مفتوح لدى الشيخ ، يقرأ سطوره وما بين سطوره، ويتدبر أحداثه ويتعلم منها ويعلم ، ويوظفها فى نصرة دعوته وتحقيق مقاصدها .

وإلى جانب هذه الركائز توافرت للشيخ خصائص أهلته للقيام بواجب الدعـوة وتميزه فى هذا الميدان ، من أبرزها : [(١١)].

١- العقل العلمى الناقد :

وهذا العقل هو الذى يمكن صاحبه من الدعوة على بصيرة كما أمر ا لله تعالى :

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى ا لله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾ [يوسف: ١٠٨] .

وهو الذى يستطيع أن يوظف مايقرؤه فى خدمة الدعوة التى يؤمن بهـا. وهـذا العقـل هو الذى يستطيع أن يوظف التاريخ، والواقع، والثقافة كلها، فى سبيل الدعوة والرسالة.

٢- النفس الشاعرة :

لم يقل الشيخ الغزالى الشعر كلاماً موزوناً مقفى، ولكنـه يحمـل روح الشـاعر، ونفـس الفنان، الذى يتفاعل مع كل ما حوله، ويرى فى كل نبتة فى الأرض أو نجمة فى السـماء، روحاً توحد ا لله ، ولساناً يسبح بحمد ا لله .

وهو يتذوق الشعر ويرى أنه لا يستطيع أن يخدم الإسـلام بحـق إلا ذو نفـس شـاعرة ، وقد اتخذ من الشعر أداة للبيان ، وسلاحاً فى معركة الدعوة ، ويستشهد به فى محاضراتـه وخطبه ومقالاته .

٣- الروحانية الدافقة :

وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدث الناس عن ا لله تعـالى، ومصدرهـا هـو حسـن معرفة ا لله عز وجل، وصدق الإيمان به ، وتتدفق هذه الروحانيـة عنـد الغـزالى فـى خطبـه وأحاديثـه ومقالاتـه وكتبـه ، ويمكن تلمسـها بوضـوح فـى كتابـه "الجـانب العـاطفى فـى الإسلام" وبخاصة شرحه لحكم ابن عطاء ا لله السكندرى فى هذا الكتاب .

ثالثاً : اقتراب الغزالى من جمهوره ومعرفته به :

عايش الغزالى جمهوره الواسع وعرف سماته ، سواء أكان هذا الجمهور فى الريف أو فى الحضر، فقد نشأ الغزالى فى إحدى قرى محافظة البحيرة ؛ فخبر أهل الريف وعايشهم، وتعرف عن قرب على عللهم ومشاكلهم وقضاياهم ، وترجم ذلك فى حياته وكتاباته ، بخاصة عندما انحاز إلى الفلاحين البسطاء ونقد بشدة استغلالهم وامتصاص دمائهم ، وأوضح موقف الإسلام فى توزيع الثروة ، وبين حق الأجير وحدود الملكية ومفهومها ، تحدث عن كل ذلك فى العديد من كتبه ومقالاته ، وبخاصة كتاباه "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" و"الإسلام والمناهج الاشتراكية" .

كما عايش جمهور المدن ، ففى مدينة القاهرة واصل تعليمه الجامعى ، ثم عمل بها داعية وخطيباً ، وتنقل بين العديد من أحياء العاصمة المصرية، بل إنه عايش جمهوره الواسع فى العالم العربى شرقاً وغرباً ، فقد عمل فترة من حياته أستاذاً فى جامعات السعودية وقطر والجزائر . كما عمل أستاذاً زائراً فى العديد من الجامعات العربية والإسلامية، فضلاً عن ذلك فقد جاب أقطار الدنيا ؛ ليبلغ رسالة الإسلام ، لكل ذلك عرف الغزالى جمهوره وخبره ، واهتم به، بدرجة لا تقل عن اهتمامه بمضمون رسالته .

وهذا الوعى بطبيعة الجمهور واحتياجاته وخصائصه الذى قلما نجده عند غالبية الدعاة، يعتبر أحد العناصر الرئيسية وراء نجاحه كداعية استطاع أن ينفذ إلى قلوب المسلمين وعقولهم .

ويفصح الغزالى عن اهتمامه بجمهوره وخصائصه فيقول :

" قد رأيت بعد تجارب عدة ، أننى لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة ، الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة . إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت معدته خالية ، أو تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عارياً . إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التى تقيم أوده كإنسان ، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك فى نفسه مبادئ الإيمان ، كثيراً ما وجدتنى أعالج وعظ الناس فى بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل ،

فكنت أحار ماذا أقول لهم ، هل أقبح لهم الدنيا ، كما يظن أنه مفروض من علماء الدين ؟ إن الدنيا لن تكون أقبح مما عليه فى أعين هؤلاء التعساء " (١٢).

ويؤكد أهمية وعى الداعية بجمهوره وظروفه والجو العام السائد قائلاً :

"غاية ما يصبو إليه الدين ، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل . فإذا ضمنا هذا الجو الرحب ، فقد أمكن للدين أن يحقق رسالته وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس فى بطون الكتب ، أو كلاماً تنقله طائفة من الرجال فى حلقات الوعظ ، وخطب المنابر ، لا يثمر غير التوجيه النظرى " (١٣)

مقومات نجاح رسائله :

وإذا انتقلنا إلى (مضمون الرسالة الاتصالية) عند الغزالى نجد أنه يتحقق فيها مقومات نجاح الرسالة كما وضعها علماء الإعلام والاتصال .

فقد تميز مضمون رسالته الإعلامية (مقالات وكتب وخطب) بالوضوح والبساطة والإيجاز، والوصول إلى عقل المتلقى من أقرب الطرق .

وقد لوحظ تأثره فى صياغة رسالته الاتصالية بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوى، فضلاً عن تأثره بالشعر العربى، يتجلى ذلك فى كتبه ومقالاته وخطبه على حد سواء .

وسوف نعرض بإيجاز لأمثلة تبين ذلك، فحين يقول الشيخ الإمام: "وعلينا أن نفصل الحق من الباطل، وأن نميز الخبيث من الطيب" فهو متأثر بالعبارة القرآنية التى تكررت فى آيتين ، أولاهما فى قوله جل شأنه : ﴿ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ [آل عمران : ١٧٩] والثانية فى قوله تعالى ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾

والتعبير القرآنى : ﴿أفمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم﴾[التوبة ١٠٩] يظهر فى قول الشيخ الغزالى : "يقف الإنسان على شفا جرف هار"

وعندما قال: "ولنعرف قيمة ما لدينا وقيمة ما لدى غيرنا . فلا نضل ولا نخزى" إنما كان يشير إلى قوله عز وجل : ﴿ولو أننا أهلكناهم بعذاب من قبله، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ [طه : ١٣٤] .

ومن النماذج التى تبين تأثر أسلوبه بالحديث النبوى قول الغزالى: "فالمسلم الحق أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله" ، نراه يقتبس فى هذا القول حديثاً مشهوراً، رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد بن حنبل.

ومن أمثلة تأثر أسلوبه بالشعر العربى قوله : "والظلم أبداً مرتعه وخيم" فهو هنا متأثر ببيت الشاعر محمد بن عيسى بن طلحه :

ندم البغاة ولات ساعة مندم   والبغى مرتع مبتغيه وخيم

(خزانة الأدب٢ /١٤٧ والعينى على الخزانة ١٤٦/٢)

وحين يقول : "هناك البليد الذى لا يحس القريب من أنفه وهناك الألمعى الذى يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سمعا" إنما يقتبس قول أوس بن حجر :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(ديوان أوس بن حجر ق ٣/٢٦ص٥٣ وتهذيب اللغة ٤٢٤/٢) [١٤].

وسوف نتوقف عند خطب الغزالى باعتبار أن الخطبة أهم رسالة إعلامية عند الداعية ، فتمتاز خطبه بأنها دائماً تخدم موضوعاً علمياً محدداً يوضح معالمه وعناصره، ويستدل له من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهى دائماً مرتبطة بالواقع، تقوم عوجه ، وتعالج أمراضه ، وتسدد مسيرته ، فى ضوء تعاليم الإسلام .

وهو فى خطبه معلم موجه، أكثر منه خطيباً محرضاً ، ويخطب كما يكتب، عذوبة ورشاقة ، فخطبه كلها قطع أدبية ، لا تجد فيها حوشىالكلام ، ولا سوقية ، كما لا تجد فيها التقعر والألفاظ الغريبة .

وقارئ هذه الخطب يجد فيها أثر الثقافة المتنوعة، والتمكن الأزهرى، وأصالة الدراسة اللغوية والأدبية. وهو متمكن من اللغة واع لقواعد النحو والصرف، لا يلحن ولايخطئ (١٥) .

كما يحرص الشيخ على تضمينها حججاً عقلية قوية وأخرى عاطفية ، تقنع جمهوره على اختلاف شرائحه .

وهو فى خطبه دائماً يتفاعل مع الأحداث والقضايا المثارة على الساحة ، ويعرض للرؤية الإسلامية التى لا ينبغى تجاهلها، معتمداً على الفهم الصحيح للقرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الفقهاء ، ويضمن خطبه نصوصاً دينية وشواهد من التاريخ تدعم موضوعه وتؤيده.

ويعبر الشيخ الغزالى عن هذا الفهم لمقومات نجاح الرسالة الاتصالية، حينما يقرر ضرورة توافر عدة عناصر لخطبة الجمعة، من أهمها (١٦) .

١- وحدة الموضوع :

فالخطيب الذى يخوض فى موضوعات كثيرة يشتت الأذهان .

٢- تسلسل عناصر الخطبة :

عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر فى تسلسل منطقى مقبول، بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء كلمته كان السامعون قد وصلوا إلى النتيجة التى يريد بلوغها، وعليه أن ينتقى من النصوص والآثار ما يمهد طريقه إلى هذه الغاية. ويلاحظ هنا أنه يتفق على ما نصح به خبراء الاتصال من ضرورة ترتيب مضمون الرسالة وتحديد مواقع الحجج القوية فيها.

٣- الاعتماد على الحقائق الصحيحة :

لما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعانى الإسلامية المستمدة من (الكتاب والسنة) وآثار السلف الصلح فإن لحمتها وسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة، وفى آيات

القرآن الكريم ومعالم السنة المطهرة متسع يغنى فى الوعظ والارشاد ؛ ولذلك لا يليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية أو الموضوعة. وهنا يتفق مع قول علماء الاتصال بضرورة احتواء الرسالة على حقائق ومعلومات متناغمة.

٤- البعد عن الخلاف والتعصب :

لا يجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية، ولا أن تكون تعصباً لوجهة نظر إسلامية محدودة.. فإن المسجد يجمع ولا يفرق ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التى يلتقى عندها الكل دون خوض فى المسائل التى يتفاوت تقديرها.

٥- الاهتمام بالقضايا والأحداث المثارة :

بين الخطبة والأحداث العابرة والملابسات المحيطة والجماهير السامعة علاقة لا يمكن تجاهلها، ومما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد والناس والزمان والمكان فى واد آخر.وهو هنا يشير إلى عنصر من العناصر المهمة لنجاح عملية الاتصال وهو مواكبة العصر .

٦- الاهتمام بالجانب الأخلاقى والتربوى :

فخطبة الجمعة إحدى الوسائل التربوية المهمة والتربية الصحيحة من المنظور الإسلامى تقوم على بيان الجوانب الخلقية والاجتماعية فى الإسلام وشرح ما يقترن بالخير والشر من معان حسنة أو سيئة ومن عواقب حميدة أو ذميمة، ولابأس من التعريج على الأجزية الأخروية، وعرض ما أعده ا لله فى الآخرة للأبرار والفجار. وهو هنا يتفق مع ما أشار إليه علماء الاتصال من ضرورة أن تحتوى الرسالة على عناصر إيجابية وأخرى سلبية، أو ما يسمى بلغة الدعوة (الترهيب والترغيب).

٧- بيان معالم الحضارة الإسلامية :

فيفضل أن تتضمن خطبة الجمعة تنويها عن الحضارة اليانعة التى أقامها الإسلام فى العالم ، والتى تفجرت من الحركة العقلية التى أحدثها القرآن الكريم واليقظة الإنسانية التى صنعها رسول ا لله ﷺ .

٨- الإيجاز :

لاشك أن إيجاز الخطبة أعون على تثبيت الحقائق وجمع المشاعر والأفكار حول ما يـراد بثه من تعاليم، فإن الكلام الكثير ينسى بعضه بعضاً، والإيجاز كما أشرنا من العناصر التـى أكد عليها علماء الإعلام لنجاح العملية الاتصالية.

وهكذا يتضح أن تجربة الشيخ الغزالى الدعوية قد اعتمدت على المقومات التى تحـدث عنها علماء الإعلام والاتصال لنجاح العملية الاتصالية، وهـو قـد تمكـن مـن إحـراز هـذا النجاح فى تجربته بفضل توفيق الله أولاً، ثم بفضل حسه القـوى وفطنتـه وثقافتـه، فهـو لم يدرس علم الاتصال، وإنما توافرت له عدة مقومـات وعوامـل جعلتـه داعيـة ناجحـاً بكـل المقاييس.

وعلى الجانب العملى لم يقتصـر الغـزالى فـى تجربتـه الدعويـة علـى الخطـب والكتـب. والمقالات واللقاءات الإعلامية وإنما حاول تطوير عمله الدعوى، فحول الجامع إلى جامعـة تدرس فيها علوم الدين.

فعندما تم تعيينه فى مسجد العتبة، لم يكتف بخطبـة الجمعـة، وإنمـا قسـم أيـام الأسـبوع ووزعها على العلوم الإسلامية، من خلال الدروس اليومية التى كان يلقيها بالجامع، فجعل يوم السبت لتدريس تفسير القرآن الكريم ، ويـوم الأحـد لتدريـس السـنة النبويـة، ويـوم الاثنين لتدريس الفقه، ويـوم الثلاثـاء للتـاريخ الإسـلامى، ويـوم الأربعـاء للعقيـدة، ويـوم الخميس لإلقاء درس فى الأخلاق، ويوم الجمعة الخطبة.

لاشك أن تجربة الغزالى فى ميدان الدعوة نموذج طيب يمكن أن يفيـد منـه الدعـاة فـى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ونحـن إذ ندعـو لذلـك فإننـا نؤكـد أن سـيرة المصطفـى - صلى الله عليه وسلم- هى القدوة والمثل الأعلى، ولكن من المفيد أن نتعلم أيضاً من سـير وتجارب المصلحين والمجددين فى إطار ظروفها الموضوعيـة ومـا يمكـن أن يعـترى أى تجربـة بشرية من الخطأ والصواب.



هوامش الفصل الخامس

تجربة الغزالى الدعوية فى ميزان علم الاتصال

١- محمد الغزالى : "هموم داعية" ١٩٨٣م ، ص ١٧.

٢- المرجع السابق ، ص ١٧.

٣- د. علاء محمد الغزالى : "السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالى"

ضمن (العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى) ص٢٠٣-٢٠٤.

٤- سمير حسين: "الإعلام والاتصال بالجماهير والرأى العام" القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٤ ص٢١.

٥- المرجع السابق، ص٢٢.

٦- عبدالغفار عزيز: "الدعوة الإسلامية بين الوجوب والتطوع" بحث مقدم لندوة (الإعلام الإسلامى بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل) جامعة الأزهر، مايو ١٩٩٢م.

٧- سمير حسين "الإعلام والاتصال بالجماهير والرأى العام" ص١٣٧-١٤٦.

٨- المرجع السابق، ص١٤٠.

٩- المرجع السابق، ١٤١.

١٠- د. يوسف القرضاوى: "الشيخ محمد الغزالى كما عرفته" ص ٧٩-٨٠ .

١١- المصدر السابق، ص ٨٥- ٩٨.

١٢- محمد الغزالى: "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" القاهرة : دار الريان للتراث ، ط ٨، ١٩٨٧م. ص٦١.

١٣- المرجع السابق، ص٦١.

١٤- د. رمضان عبدالتواب مع عماد الدين خليل وآخرين : "الشيخ محمد الغزالى صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره".القاهرة: دار الصحوة للنشر، ١٩٩٣، ص ٥٠-٥٣.

١٥- د. يوسف القرضاوى، مرجع سابق، ص ٥٨-٥٩.

١٦- عبد الله المصرى: "الداعية الشهيد الشيخ محمد الغزالى".القاهرة: دار الاعتصام، ص ٣٧-٤١.



ملحق

اقتراب من الشيخ محمد الغزالى :

حوار متصل حول قضايا العصر

يتضمن هذا الملحق آخر حوار متصل أجريته مع الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى ونشر في ثلاث حلقات بمجلة (نصف الدنيا) قبيل وفاته

وقد رأيت أن هذا الحوار يمثل اقتراباً أكثر من فكر هذا الداعية الكبير ، حيث جاءت إجاباته عن تساؤلاتى تلقائية ومباشرة ، تعكس جانباً من طبيعة الرجل ومنهجه العلمى ، لذا فإن هذا الحوار الذى طوف في العديد من القضايا التى تعكس رؤيته التجديدية يكمل الجوانب التى يتضمنها هذا الكتاب .

فيما يلى نص الحوار :

اخترنا أن يبدأ حوارنا مع فضيلته حول تصوره لفقه القرآن . وكيفية تعامل المسلمين المعاصرين معه قراءة وتدبراً وفهماً ، فقال : إن قراءة القرآن يجب أن تتجاوزأحكام التلاوة إلى التدبر والوعي بما تحمله الكلمات وما تشير إليه الآيات ، بحيث يفهم القارئ الجملة فهماً دقيقاً ويبذل كل ما في وسعه لإدراك معناها ومقاصدها ، فإن عَزَّ عليه الأمرفليسأل أهل الذكر ، أي علماء الدين ، فالمسلم عليه أن يكون في مدارسة للقرآن ، والمدارسة تعني- بجانب التدبر والفهم- التبيين لسنن الله في الأنفس والآفاق ، ومقومات الشهود الحضاري ، والتعرف على الأحكام والوصايا ، وأنواع الترغيب والترهيب ، وهكذا يرتقي الإنسان إلى كتاب الله .

"و يرتفع صوت. فضيلته وهو يقول: عندما قرأ العرب الأوائل القرآن حق قراءته تحولوا تلقائياً إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد .. أمة يسودها العدل الاجتماعي ، ولا يعرف فيها نظام للطبقات.. أمة تكره التفرقة العنصرية أو الترفع على الشعوب ، وهكذا نجد القرآن يصوغ النفوس والأمم ويبني الحضارة ، فهذا هو نوره ، وهذه هي طاقته ، أما أن يشعل المصباح فلا يرى أحد النور ، فلأن الأبصار مغلقة ، وهذا عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور .. يقول تعالى : ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ ولكن للأسف لم نتبع رضوان الله ولا سبل السلام ، ففي العالم خمسة مليارات من البشر محجوبون عن نور القرآن ؛ لأن المسلمين أنفسهم محجوبون عن هذا النور ، وفاقد الشيء لا يعطيه !

أخطاء ترجمات معاني القرآن

** ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الاخري لا يزال بها الكثير من الأخطاء ، وبعضها أخطاء قاتلة ، فهل الكتب التي تتضمن هذه الترجمات يمكن أن نطلق عليها مصاحف ، وكيف يمكن تلافي هذه الأخطاء ؟

إن علماء المسلمين قد اتفقوا على أن النظم العربي جزء من النص القرآني ، وأن ترجمة

معاني القرآن لا يمكن أن تسمى وحياً أبداً ، و مهما كانت هذه الترجمة دقيقة فإنه من المستحيل أن نطلق عليها قرآناً ، إنما نسميها ترجمة لمعاني القرآن الكريم أو تفسيراً له باللغة الانجليزية أو أي لغة أخري ، ولكن القرآن لا يكون إلا عربياً.. إن عالمية القرآن تتحقق من خلال ترجمة المعاني والأهداف للناس.. فما حاجة الناس لأن يترجم لهم كتاب الله كله طالما أن هذه الترجمة ستكون ناقصة ؟ فالكثير من المعاني لا يمكن أن تلحظ إلا في الأصل العربي .

وينبه شيخنا الجليل إلى أن هناك الكثير من الأهداف والقيم والأحكام والمحاور في القرآن الكريم يمكن نقلها بدون حرج.. أما أن يتم نقل كل ذلك بالأسلوب القرآني فهذا أمر لا تحتاج إليه الأمم الأخري ، فمثلاً يمكن أن نترجم المواريث والحدود وخلاصة القصة القرآنية .

القرآن لا يناقض حقيقة علمية

** نعود مرة أخرى لقضية التعامل مع القرآن الكريم ، وفي هذا الإطار كيف تنظر إلى التفسير العلمي للقرآن أو الإعجاز العلمي للقرآن ؟

القاعدة التي ارتضاها العلماء في هذا الميدان هي أن القرآن كتاب تحدث في الكون أكثر من أي كتاب سماوي آخر ، ونري هذا – على سبيل المثال– في قوله تعالى : ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آياتٌ لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقومٍ يعقلون . تلك آياتُ الله نتلُوها عليكَ بالحقِّ﴾ فالآيات التي تلاها الله علينا كلها آيات كونية ، ولا قيام للأدلة القرآنية إلا بدراسة العالم والتفكر في الكون وأسراره العلمية ، ولهذا ألف العقاد كتابه "التفكير فريضة إسلامية" – وهي كذلك – وقد ذكر نحو ثلثمائة (٣٠٠) آية في أول كتابه تتعلق بوظائف العقل وأساليب وصوله إلى الحق ومضى في سرد الآيات القرآنية على هذا الأساس ، فلابد من الدراسة العلمية لهذ الآيات وهي نوعان من الدراسات العلمية ، الأول يتناول النظريات العلمية ، والثاني يتناول

الحقائق العلمية ، وعلي سبيل المثال أصبح من الحقائق العلمية أن الأرض تدور حول الشمس ، وأن القمر يدور حول الأرض . أما النظريات فهي جهد عقلي في فهم أمر ما قد يكون صحيحاً ، وقد يكون خاطئاً، مثل مسألة ما إذا كان الفضاء يتمدد كما يقول أنشتاين ، فهذه نظرية قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة .. وأنا لا أُلزم القرآن بنظريات علمية ، أما الحقيقة العلمية فيستحيل أن يكون في الإسلام ما يناقضها ؛ لذلك فإن هذه الاجتهادات في التفسير العلمي للقرآن أو بيان إعجازه والإشارات العلمية التي يتضمنها لا بأس بها ، على أن يلتزم بالحقائق العلميه فقط ، فيجب ألا نعتمد على النظريات في تفسير القرآن ، وأيضا ينبغي لمن يتصدى لهذا الأمر أن يكون مؤهلاً لفهم القرآن ، وعلى علم كاف باللغة العربية ، فضلاً عن تخصصه العلمي الذي يمكنه من القيام بمثل هذا العمل الدقيق .

وماذا عمن يقول : إنه يطرح فهماً جديداً للنص القرآني ؟

القرآن الكريم معروف أنه مضبوط شكلاً وموضوعاً في توارثنا له ، فكيف يأتي اليوم من يشكك في هذا الكتاب المحكم ؟!.. يقول الشاعر :

ليس من صحة الأذهان شئ   إذا احتاج النهار إلى الليل

فالقرآن كتاب تلقاه أصحابه من صاحب الرسالة جمعاً بعد جمع ، وهو الآن معروف لدى مليار و٢٥٠ من البشر ، ولا يوجد شئ اسمه قرآن آخر غير هذا المصحف الذي نقرأه جميعاً ، ولا أعرف فهماً بهذا الشكل.. فهل نفهم اللغة الإنجليزية بقواعد اللغة الفرنسية ؟!!.. إن الذين يحاولون اللعب بالآيات القرآنية ، هم في رأيي قوم لا ثقة بعقلهم ولا يصلحون لشئ !

الدعاة والأدعياء !

** قلت لفضيلته : عندما كنت إماماً وخطيباً بمسجد العتبة كان لفضيلتكم تجربة فريدة في ميدان الدعوة ، حيث تحول الجامع إلى جامعة يتعلم فيها الناس سماحة الدين.. نريد أن نتوقف قليلاً عند هذه التجربة ؟

– بالفعل عندما كنت داعية بمسجد العتبة تحول الجامع إلى جامعة شعبية ، ولكن للأسف المسجد – كما هو الحال في كثير من المناطق– عاد مرة أخري إلى مجرد جدران ، فالمساجد التي يمكن أن نقول : إنها تدرس علوم الدين تعد على الأصابع.. أما حينما كنت في مسجد العتبة فقد قسمت أيام الأسبوع على العلوم الإسلامية ، فكنت أدرس للناس يوم السبت درساً في التفسير ، و يوم الأحد درساً في السنة ، ويوم الاثنين درساً في الفقه ، ويوم الثلاثاء درساً في التاريخ الإسلامي ، ويوم الأربعاء درساً في العقيدة ، ويوم الخميس درساً في الأخلاق ، ويوم الجمعة الخُطبة .

** خطبة الجمعة أصبحت اليوم محل شكوي من كثيرين ، سواء بسبب مدتها التي قد تطول في بعض المساجد إلى حد يرهق المرضي وكبار السن ، او عدم وجود موضوع محدد للخطبة ، أو تكرارموضوعها.. فما قولكم دام فضلكم .

يا سيدي فاقد الشئ لا يعطيه .. فإذا لم يكن الإمام عالماً بموضوعه وعناصره وشواهده من كتاب ا لله وسنة نبيه ، وقيم الإسلام وسوابقه الحضارية ، فكيف سيلقي خطبة جيدة ؟! إن المسألة تتعلق بتطفل غير المؤهلين على منابر الدعوة ، وأيضا بضعف مستوي بعض الدعاة .

لفضيلتكم تجربة ثرية في مجال الدعوة.. واليوم نجد بعض الأدعياء يحتلون منابر الدعوة ، فكيف يفرق المسلم العادي بين الدعاة والأدعياء ؟

– بآثارهم نفرق بينهم.. فالإسلام دين واضح ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ ، فمن قال شيئاً غير هذه التعاليم الواضحة في كتاب ا لله وسنته رفضناه ، ومن أراد بكلامه شيئاً من الدنيا فإن هذا القصد المغشوش حسابه إلى ا لله وليس إلينا ؛ لإننا نحاسب الناس على أعمالهم الظاهرة ، ولا شك أن هناك أدعياء ومرائين في كل مكان ، عندنا وعند غيرنا .

كيف تفسر تطفل البعض من غير المؤهلين على مجال الدعوة.. وهل يحدث ذلك بسبب عجز في مؤسسات الدعوة ؟

– لاشك أن لدينا تخصصات كثيرة في ميدان الدعوة ، ولكنها ضعيفة ، ومنذ تحول

الأزهر إلى جامعة تجمع بين علوم الدين والعلوم المدنية الأخرى ضعفت العلوم الدينية فيه ، ولكن الأمر لا يتوقف فقط على مؤسسات الدعوة ، فهناك أناس لديهم قدرة على دراسة الإسلام دراسة صحيحة من غير أن يكونوا من خريجي الأزهر الشريف ، على سبيل المثال: محمد فريد وجدي لم يكن من علماء الأزهر ، ولكنه كان عالماً وصاحب دائرة معارف إسلامية ، كما تولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر، ومن ثم نحن نقبل كل من درس الإسلام بأسلوب صحيح وتعمق فيه بغض النظر عن الكلية التي تخرج منها .

أما ما نأسف له بحق فهو تصدي البعض للدعوة في حين أنهم ليس لديهم قدم في الفقه أو العلوم الإسلامية ولا حتى الذكاء العادي! والأكثر من ذلك قد تجد من قد لا يصلح مدرس ابتدائي أو ثانوي ومع ذلك يريد أن يكون ناقداً للإسلام ، ويدخل نفسه في زمرة المفسرين للقرآن تحت مسميات براقة مثل الزعم بوجود مداخل جديدة لفهم النص القرآني .. للأسف أصبح الكلام في الإسلام في إمكانات الذين لا يفقهون .. وهذا ما لا نقبله !

** بعد ٥٠ عاماً من العمل في حقل الدعوة ما هي القيمة التي توصلت إليها في هذا المجال والتي تريد من كل مسلم أن يتعلمها ؟

أريد إلا يشتغل بالدعوة إلا من يجمع بين صفتين هما الذكاء والإخلاص. فالغبي عدو نفسه ، والمنافق لا يقبل منه الحق ؛ لأن رائحة الحق في فمه رديئة !

** لماذا اخترت طريق الدعوة ؟

قادتني إلى هذا الطريق التربية الدينية التي نشئت عليها في بيتنا ، والحمد لله على ذلك.

خطوط فاصلة

"ولكن البعض قد يري أنه بذلك يجتهد في فهم الدين ، لذا نريد من فضيلتكم توضيح الخطوط الفاصلة بين الاجتهاد والخروج عن الدين ؟

– الاجتهاد انقياد إلى العقيدة والشريعة ، والنظر بإنصاف إلى ما فيها من قواعد

وفروع؛ ولهذا الاجتهاد أدواته ورجاله وشروطه معروفة ، أما الخروج عن الدين فهو بمثابة رجل يريد أن ينسف البيت ، والشجرة لا يشدها إلا فرع منها ، ومن يخرج عن الدين يخون الإسلام بتمزيق جزء منه كبداية ، ثم ينتهي من تمزيقه كله ، وهولاء معروفون ، وقد اقتربت من فكرهم فلم أجد إلا الغباوة الشديدة جداً .

** سألته : في ظل تداخل المصالح وتشابكها هل يمكن القول بأن عهد المفتي الفرد قد انتهي وحل محله الاجتهاد الجماعي ؟

– الإفتاء في الفروع مسألة لا قيمة لها، والاختلافات في الفروع تشبه الاختلافات بين الأحزاب في دولة ديمقراطية مثل انجلترا ، حيث نجد حزب المحافظين وحزب العمال يختلفون في رؤيتهم للعديد من القضايا القومية هناك ، فهل انقسام الأمة إلى أحزاب في تناول القضايا السياسية واقتراح العلاج للمشاكل التي تعترضها- هل يعتبر ذلك عيباً في النظام؟! بالتأكيد لا ؛ لأن كلهم أوفياء لأمتهم ، وهكذا الإفتاء في الفروع ، فما دام الفقيه يعرف كتاب ربه وسنة نبيه حق المعرفة ، فليس هناك مشكلة في تعامله مع مخالفيه ، ونحن لدينا مذاهب فقهية كثيرة أثرت الفقه الإسلامي .

** وكيف تنظر إلى المؤسسات التي تتولى عملية الاجتهاد في العالم الإسلامي اليوم ؟

– لا شك أنها مؤسسات جيدة في مجملها ، فقد تكون مقصرة أو كسولة أو محدودة الدائرة التي تعمل فيها ، ولكن السبب يرجع إلى غلبة السياسة العامة على شئون العالم الإسلامي .

الباب مفتوح ولكن

** بصراحة هل تري فضيلتكم أن باب الاجتهاد مفتوح بما يكفي – نعم الباب مفتوح، ولكن أهلية الاجتهاد غير موجودة عند كثير ممن يحاولون أن يكونوا مجتهدين أو يدعون الاجتهاد بغير علم .

** ألحت على شيخنا أن يذكر مثالاً للذين يدعون الاجتهاد من غير أن يكونوا

مؤهلين لذلك ، فقال : عندما نجد مسلماً مثل المستشار سعيد العشماوي يزعم أنه يقرأ القرآن ويجتهد في الإسلام ثم يقول : ليس في القرآن ما يحرم الخمر.. فهل هذا مجتهد ؟.. كيف نقبل هذا الكلام وأين نذهب بالآية القرآنية التي تقول ﴿يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ .

** بماذا تفسر اتجاه بعض فرق الصحوة الإسلامية المعاصرة إلى العنف أخذ شهيقاً عميقاً وقال: إذا كانت بعض فرق الصحوة الإسلامية قد اتجهت إلى العنف كما تقول ، فلأن الطريق الشرعي الطبيعي غير مُعبد ، فإذا وجد الطريق المُعبد وجرت انتخابات حرة وأصبحت هناك قنوات شرعية للتعبير ، فلا نجد مثل هذه الاتجهات ، ولكن الذي نراه أن الكثير من المجتمعات الإسلامية محكومة بالقوانين العرفية.. على سبيل المثال رأيت في تونس من ألغى – رمضان وألغى نظم المواريث – فماذا تنتظر أن يكون رد الفعل ؟

تخلف المسلمين.. لماذا ؟

** من خلال جولاتك في العالم الإسلامي.. ما هي أسباب تخلف المسلمين كما لمستها بنفسك – الأمة الإسلامية تاريخها الحضاري عجيب ؛ لأن الخط البياني لها قد يرتفع إلى القمة، وقد يهبط فجأة إلى القاع.. وفي الإسلام وفي كل قوانين ا لله وسننه لا تمضي الأمور بدون أسباب .. وأذكر في هذا المجال حديثاً نبوياً يقول : "لتنقضن عرا الإسلام عروة عروة.. أول عروة تنقض هي الحكم وآخرها الصلاة" والحكم في العالم الإسلامي دون الحكم في عالم آخر ، فلا نكاد نجد دولة في العالم الإسلامي تطبق نظام شورى ديمقراطي مثل النظام الإنجليزي !!

الشورى والتعددية

** في التطبيق المعاصر للشورى هل يمكن أن تستوعب التعددية الحزبية ؟

نعم.. فماذا يضير في اختلاف الآراء في قضايا مثل ما شهدته مصر من انقسام الآراء حول القطاع العام والقطاع الخاص .

** إذن يمكن الاستفادة من التراث الغربي في مجال الديمقراطية في التطبيق المعاصر للشورى ؟

بكل تأكيد ، ولكن المشكلة أن المسلمين عندما أخذوا من الغرب النظم القائمة هناك نقلوا الصورة والشكل ولم ينقلوا الروح ؛ لذلك لا نجد في معظم بلدان العالم الإسلامي انتخابات حرة ، أما في الغرب فإن التزييف في الانتخابات منكر لا يفكر فيه أحد

** اختلفت الآراء حول الشوري ، فالبعض يري أنها ملزمة للحاكم ، والبعض الآخر يرى أنها معلمة له فقط .. فمع أي الرأيين تميلون ؟

الشورى بكل تأكيد ملزمة للحاكم ، وإلا أصبح الأمر "لعب عيال" ! .. فقرار مجلس الشعب أو المجلس النيابي يجب على الحاكم أن ينفذه .

** كيف تنظر إلى آفاق التعاون أو التضامن فيما بين الدول الإسلامية في ظل المتغيرات والتطورات الدولية التي يشهدها العالم الآن .

يا سيدي ، الأمور سيئة ، ويكفي أننا لم نفعل شيئاً للبوسنة ، ولولا استماتة أهلها في الدفاع عنها مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تتدخل لحسم الموقف ؛ ما تبقى للإسلام وجود هناك ، والعالم الإسلامي اليوم ارتضي أن يصطلح مع إسرائيل وهو لا يدري حدود الصلح معها ؛ لأن إسرائيل تريد القدس وتنوي بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصي.. فأي صلح يمكن أن يتم والخريطة المعتمدة لدولتهم لا تزال تشير إلى حدود اسرائيل من الفرات إلى النيل !!

أولى القبلتين .. كيف تعود ؟

**القدس التي تحتضن أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى رسول ا لله ﷺ ما السبيل لاستعادتها؟

عندما يستعيد المسلمون حكمهم لأنفسهم أولاً ، وعندما يصبحون أصحاب شرف وقدرة على أداء حقوق ا لله عندئذٍ فإن ا لله سوف ينصرهم .. ولكن تبقى ضرورة استعادة

القدس بأي وسيلة ، وطالما القدس محتلة يظل الجهاد فرض عين على كل مسلم ، فلا يمكن أن نقبل سلام بدون القدس .

** ملحوظة : إسرائيل تمهد لابتلاع القدس ليس فقط بتزييف الجغرافيا وإنما أيضاً بتزييف التاريخ !! فقد بدأت منذ سنوات إجراءات تغيير معالم القدس عن طريق مصادرة الأراضي العربية وتكثيف الوجود اليهودي في القدس من أجل تهويد المدينة ، وقد تزايد عدد المستوطنين إلى ١٦٠ ألف يهودي في القدس العربية لمحاولة فرض أغلبية سكانية يهودية عليها ، مع استمرار الإجراءات التي تستهدف تقليص عدد المسلمين والمسيحيين وإرغامهم على الهجرة ، ومصادرة الأراضي العربية ومنها مصادرة خمسة آلاف دونم حول القدس مؤخراً لإقامة مستوطنات يهودية، وقرارات المحكمة الإسرائيلية بالسماح للهيئات الدينية اليهودية بإقامة الصلوات داخل أسوار المسجد الاقصي الأمر الذي يشكل تهديداً لمستقبل المسجد والتدخل في شئونه وفرض المخطط الصهيوني لاستلابه مثلما حدث في المسجد الإبراهيمي .

و في شهر سبتمبر الماضي بدأت إسرائيل خطتها لتزييف التاريخ من خلال المهرجان الذي نظمته تحت شعار القدس " ٣٠٠٠ " بحجة مرور ثلاثة آلاف سنة على تأسيس القدس على يد الملك داود كعاصمة للدولة اليهودية !! وقبل أن ينتهي هذا المهرجان تمت الموافقة على مشروع قرار لنقل سفارة أكبر حليف لها إلى القدس ، وهكذا يجري تنفيذ الخطة بدقة ودهاء وعندما يأتي اليوم المتفق عليه لبحث قضية القدس لا يجد الفلسطينيون شيئاً يتفاوضون عليه!

رؤيا هزت كيانه

** ذكرت في لقاء خاص أنه في بداية عملك في مجال الدعوة قصصت رؤيا كان أطرافها فضيلتكم والشيخ الباقوري وسيدنا عمرو بن العاص!.. نريد أن تروي لنا تفاصيل هذه القصة ؟

ضحك الشيخ الغزالي وقال وما يعنى القارئ من هذه القصة ، عموماً الحكاية بدأت عندما طلب مني الشيخ الباقوري- رحمه الله- عندما كان وزيراً للأوقاف ، أن أعمل في جامع

عمرو بن العاص ، وبعد فترة طلبني الباقوري ، وعندما ذهبت إليه قال : ماذا بينك وبين عمرو ابن العاص ، قلت : تقصد الجامع ، قال : لا ، أقصد سيدنا عمرو نفسه ، فلقد رأيته في المنام وهو عاتب عليك ، وقال لي : لقد غفرت للغزالي تطاوله علي !!.. فما الأمر ؟

قلت : الحقيقة إنه عندما طلبت مني أن أعمل في مسجد عمرو بن العاص قبلت على مضض ، وكان في نفسي شئ نحو سيدنا عمرو بسبب موقفه في مسألة التحكيم بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان – رضي ا لله عنهما – ولكن عملت بكل ما في وسعي لإحياء الجامع من خلال الدروس الدينية ، وبعد فترة تزايد إقبال الناس عليه يوم الجمعة ، وفي الأيام الأخرى لحضور هذه الدروس ... و تعلمت من هذه الرؤيا أن أحسن أدبي في تعاملي مع صحابة رسول ا لله ﷺ .

النفقة على الرجل

** في مسألة الإنفاق على الأسرة حدثت تطورات كثيرة أصبح الزوج اليوم يشتري أدوات كهربائية متقدمة تساعد المرأة على القيام بمهام ، المنزل وأحيانا تتم الاستعانة بعاملة للمساعدة في الخدمات التي يحتاجها البيت .. فهل هذا يقتضي أن تساعد العاملة في الإنفاق على المنزل ؟

المرأة إذا ساعدت في الإنفاق على البيت فإن ذلك يكون عن طريق التطوع وليس الإلزام ؛ لأن الإسلام بنى نظامه الاجتماعي على أن الرجل هو الملزم بالنفقة ، وعندما انهدم هذا النظام في أوروبا و أصبحت المرأة تكلف بالنفقة ، وجدنا أن البكارة ضاعت في سن١٦ سنة لدى البنات هناك ، ونحن لا نريد انتهاك الأعراض باسم استقلال الشخصية وقدرتها على أن تنفق على نفسها أو بيتها .. إلخ .

فالنفقة لابد منها وهي معصوبة برأس الرجل ، أما المرأة فإذا أسهمت في الإنفاق وكان ذلك بالمروءة والتطوع أهلا وسهلاً ، ولكن ان تكلف كما يكلف الرجل فلا .

هي ليست صفراً

** هل نفهم من ذلك أن قوامة الرجل غير مرتبطة بمسألة الإنفاق ؟!

يا أخي هل القوامة لا تكون إلا في الأكل والشرب فقط!!.. إن قوامة الرجل تتعلق بالأمور العامة في تصريف البيت وتربية الأولاد ، فالبيت شركة ، والشركة لها مجلس إدارة، الرجل هو رئيسه ، ولكن هذا لا يعني أن المرأة صفر ، وإنما على الرجل أن يأخذ رأيها ويستشيرها في الأمر ثم يتولى التنفيذ .

** يصمت قليلاً الشيخ الغزالي ثم يرتفع صوته وهو يتساءل : أنا لا أفهم لماذا يستنوق الجمل ؟.. لماذا يريدون أن يتحول الرجل إلى امرأة ؟ لحساب من هذه اللخبطة .. قد منع الغرب تعدد الزوجات وأباح تعدد أخر هو اللواط والشذوذ والسحاق !!

إنني كنت أتابع بأسى شديد القضايا المطروحة على مؤتمر بكين ، وقلت في نفسي : إن أمثال مؤتمر بكين كان يجب أن يعقد في حديقة الحيوانات ، وليس في عواصم تتحدث عن شرف الأسرة.. أنا لا أفهم أن يتزوج رجل برجل أو امرأة بأخري ، فهذا سفاح وشذوذ ، مهما كانت المسميات التي يرددونها لتغطية الحقيقة !

إعلان مبادئ

** قلت : طرح الدكتور أحمد كمال أبو المجد مع نخبة من العلماء والمفكرين الإسلاميين إعلان مبادئ بعنوان " رؤية إسلامية معاصرة " ، فهل من الممكن استناداً إلى هذه الرؤية صياغة مشروع حضاري إسلامي جديد ينير الطريق أمام الجماهير ، ويوضح موقف الإسلام من القضايا المثارة على هدى من وسطية الدين الحنيف البعيدة عن أي تفريط أو إفراط ؟

– ياسيدي ، القرآن الكريم يكفينا ، وقد أوضحنا موقف الإسلام في الكثير من القضايا وفي مناسبات عديدة ، العيب ليس في عدم الوضوح وإنما في المسلمين المعاصرين أنفسهم ، فإذا كان في الإسلام عيب فهو المسلمون !!

الحرب على سيبويه !

** تحرص النخبة المثقفة في بلادنا على تعليم أبنائها اللغات الأجنبية بشتى الطرق ، وفي الوقت نفسه نجد تقصيراً في الاهتمام باللغة العربية بين الكبار والصغار أيضاً ، فما تعليقكم؟

لا شك أن الاهتمام باللغة العربية شئ مهم ، وهذه مسألة ترتبط بالهوية الثقافية للأمة ، فأية أمة تحترم نفسها لابد أن تحافظ على لغتها ، فعلى سبيل المثال سمعنا عن القرار الذي استصدره وزير الثقافة الفرنسي ليجرم من يذكر في وسائل الإعلام كلمة أجنبية لها نظير في اللغة الفرنسية بهدف حماية اللغة الوطنية ، أما في بلادنا فلا أدري لماذا نعلن حربا دائمة على سيبويه ؟!!

** فضيلتكم كان أحد المؤسسين للجنة التقريب بين المذاهب التي تشكلت في مصر.. فكيف يمكن إحياء هذه اللجنة لتمارس عملها في التقريب بين المذاهب في إطار هذا الحوار الإسلامي الإسلامى ؟

– لا يزال هناك فروع لهذه اللجنة في بعض عواصم العالم الإسلامي ، ولكن للأسف فإن الخلافات السياسية فيما بين الدول الإسلامية قد أثرت سلباً على عمل هذه اللجنة .

لا إبداع في شئون الدين

** كيف تنظر إلى قضية الإبداع .. و ..

قاطعني قائلاً : ذكرت من قبل مراراً وتكراراً أن الإبداع في علوم الدنيا متاح ولا غبار عليه ، أما في شئون الدين فلا إبداع ، وهنا يقول الرسول الكريم ﷺ : " أنتم أعلم بشئون دنياكم " ولكن للأسف نجد العقل الإسلامي جمد نفسه في شئون الدنيا ونتج عن ذلك التخلف الذي تعاني منه اليوم غالبية الدول الإسلامية ، فهناك أمور ومبادئ وردت في الإسلام دون أن تحدد أدواتها ووسائلها مثل الشورى ، وكان علينا أن نبدع في هذه

الأمور لنحدد طرق تحقيقها ، ولكن كيف يقيم المسلمون الشورى وقد أضاعوا الوسائل ولم يجتهدوا أو يبدعوا فيها .. فللأسف إذا نظرنا إلى غالبية المجتمعات الإسلامية اليوم سنجد أن أنظمة الشورى فيها عمل مزور ، ، وعبادة الفرد شئ مقدر !!

** ذكرتم في اكثر من مناسبة أن المشكلة في كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة تكمن في عدم فهم الدين.. كيف ؟ نريد من فضيلتكم مثال على ذلك .

كنت ذات مرة أتحدث عن أهمية إحياء السنن النبوية ، فإذا بأحد الحاضرين يقول لي بثقة : نعم لابد من إحيائها .. فهل يرضيك يا شيخنا ما يفعلونه بمنابر المساجد ، فالمنبر في السنة لا يزيد عن ثلاث درجات ، ولكن للأسف البعض يجعله عشر درجات ؟! فقلت لهذا الرجل تملؤنى الدهشة : وما دخل عدد درجات المنبر بالسنن النبوية ؟ ، فقد كان المسجد أيام الرسول ﷺ غير مفروش ، فهل نجعل السنة عدم فرش المسجد ؟! وكان المسجد مسقوفاً بسعف النخيل فإذا هطلت الأمطار تبلل أرض المسجد ، وكان الرسول وصحابته يصلون على الطين فهل نجعل السجود على الطين سنة ؟!... المشكلة أن الكثيرين يستغرقون في الشكليات ويتركون الجوهر.. للأسف أرى البعض يفقد روح الدين ويهتم بأزيائه ، ويسعى في الأرض فيحسن الاتهام لا التبرئة !!

القرآن لم ينزل في شعبان !!

** يصمت محدثنا قليلاً ثم يضيف: إننا نعاني من غش ثقافي ينتشر بين العامة ، حتى بين الذين يتصدون للحديث عن الإسلام ، فقد قرأت لأحدهم يفسر قوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ فيتفتق ذهنه عن هذه الليلة هي ليلة النصف من شعبان! فاندهشت نفسي : ألم يقرأ هذا الرجل قوله تعالى : ﴿شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن﴾ ؟

و كنت أتأمل الحديث النبوي الذي يتناول شعب الإيمان ويوضح أنها بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذي عن الطريق ، فقلت في نفسي : إن شعب الإيمان تشبه العناصر والمعادن والفيتامينات التي يحتاج إليها الجسم ، فيقول الأطباء :

إذا فقد الجسم فين "أ" أصيب بمرض كذا ، وإذا فقد "ب" أصيب بمرض آخر ، وبالمثل فإن شعب الإيمان عندما تفقد مجتمعاتنا شيئاً منها يحدث نقصاً اجتماعيـاً في الجسـم الإسـلامي.. إننا لو طبقنا جزءاً من الحديث النبوي الذي يشير إلى أن إماطة الأذي عن الطريق شعبة من شعب الإيمان لكانت شوارعنا أنظف شوارع في العالم !

مستقبل الإسلام

** كيـف ننظـر إلى مسـتقبل الإسـلام في ظـل الظـروف الراهنـة الـتي تعيشـها الأمـة الإسلامية؟

قال الشيخ الغزالي بِأَسىً : إن الأمة الإسـلامية إذا بقيـت علـى وضعهـا القـائم فسـوف تكون نكبة على الإسلام ومستقبله ، أمـا إذا ارتفعـت الأمـة إلى مسـتوي دينهـا ، وعرفـت كيف تعيش على مبادئ الإسلام وقيمه فإن المستقبل سيكون للإسلام عالمياً..

.. يا سيدي ، إن الناس ليسوا فلاسفة حتي يفرقوا بين الدعوة وحملتهـا أو بـين ديـن مـا وواقع المنتمين إليه...

.. قال لي أحد الذين اعتنقـوا الإسـلام مؤخـراً.. وهـو يضحـك -: "الحمـد لله الـذي عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلـو عرفتكـم قبـل أن أعـرف الإسـلام مـا كنـت سأدخل فيه أبداً" !

برنامجه اليومي

البيضة أم الفرخة

** سألته عن برنامجه اليومي ، فقال : إنـه يبـدأ بصـلاة الفجـر ثـم قـراءة القـرآن ، ثـم الإفطار ، و بعد ذلك أتجه إلى العمل ، أما اليوم فإنى أقضي وقتي في القـراءة والكتابـة علـى قدر طاقتي .. ثم ابتسم وأضاف : كنت ذات يوم اتناول إفطـاري . وأحيانـاً أتنـاول بيضـة

في الصباح .. فسألت نفسي هذه البيضة تحتوي على بروتين وذلال وفيتامينات.. هل الفرخة هي التي قامت بهذا العمل ووضعت العناصر الغذائية المختلفة داخل القشرة الخفيفة الهلامية ثم كستها بالقشرة الأخري ، أم من فعل ذلك ؟.. وقلت لنفسي : لو أن الفرخة هي التي عملت ذلك فإنها تعتبر أستاذة في علم الكمياء ، ولكن لا الفرخة تعرف ماذا تفعل ولا دودة القز تعلم شيئاً عن الحرير التي تنتجه .

.. ذات مرة كنت أشاهد التليفزيون ولفت نظري إعلان عن زيت الذرة ، أثار في ذهني عدة تداعيات ، فهناك زيت الزيتون ، وزيت السمسم وزيت بذرة القطن ، فاستغربت ، كيف إن الأرض واحدة وتخرج كل هذ الأنواع من الزيوت ، والأصناف الاخري من النباتات ، والفواكه والخضروات والزهور .

وسألت صديق لي : من الذي يشرف على هذه الأنواع من الأطعمة والثمار المختلفة التي تخرج من أرض واحدة ؟

فقال بثقة: إنها الطبيعة ! قلت : هل هذه الطبيعة سيدة عبقرية تشرف على صنع البيضة بكل فرخة وإنتاج الزيت داخل الذرة ، وتصنيف العناصر الغذائية في كل الأطعمة عبر القارات الستة ؟!!.. يا أخي أنتم ناس مجانين.. لماذا لا تريدون أن تعرفوا أن ا لله وهو الذي صنع كل هذا ؟!.. فالإيمان عندي شيء حسي ، أري قدرة ا لله في كل شيء ، حتي عندما أتناول طعامي ، من الذي يحول الطعام داخلي إلى دم ولحم وعظام وأظفار ؟ إنها إرادة ا لله ، ولكن للأسف فإن الحضارة القائمة لا تؤمن با لله ولا باليوم الآخر !!

** انتقلنا إلى مكتبته وهي مليئة بالكتب والمراجع ، وبها ٦ تفاسير للقرآن الكريم ، بالإضافة إلى العديد من كتب السنة النبوية ، فقلت له : لابد أن هذه المكتبة قد كلفتك الكثير ؟

ابتسم قائلاً : ليس كما تتصور ؛ لأن كل هذه الكتب قد أخذتها من الناس "ببلاش" !

** سألته عن أول كتاب ألفه في حياته ، فقال : "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" وقد صدرت منه طبعات كثيرة ، ولكنها نفدت .

** وما موضوع الكتاب الذي تعكف على كتابته الآن ؟

أعد حالياً كتاباً بعنوان " من كنوز السنة " وهو على غرار التفسير الموضوعي لسور القرآن ، ولكن في مجال السنة النبوية .

** في شرفة منزله التي تطل على حديقة صغيرة ، قال : هذة البقعة الخضراء الصغيرة هي كل ما تبقي من حقول كثيرة كانت في هذه المنطقة عندما سكنت فيها ، وكانت مزورعة بأحسن الأصناف ، ولكن التوسع العمراني في بلادنا يمشي بالعكس حيث اتجه إلى الأراضي الزراعية بدلاً من أن يتجه إلى الصحراء!.. وكنت أتمنى أن تستمر علاقتي بالارض من خلال الزراعة ، ولكن للأسف الظروف لم تساعدني ، ولم أجد من العمال الزراعيين من يعينني على هذا العمل الذي أحبه .

** هل اتجه أحد من أبنائكم إلى العمل في حقل الدعوة – لا ، فابني علاء حصل على الدكتوراه في الحاسبات ، وهو حاليا يدرس الكومبيوتر للطلاب في أكاديمية السادات للعلوم الإدراية ، والثاني : ضياء مهندس مدني ، ولي خمس بنات كلهن أتممن دراساتهن الجامعية ثم تزوجن ، وبعضهن موظفات في إدرات حكومية .

الإسلام والغرب .. حوار أم صدام ؟

العلاقة بين الإسلام والغرب ، هل تسير نحو الحوار أم نحو الصدام ؟.. هي أحد القضايا المهمة المطروحة على الساحة الإسلامية اليوم ، ولا تنفصل عن قضية الحوار بين الأديان.. سألت فضيلة الشيخ محمد الغزالي حول رؤيته لهذه العلاقة بين الإسلام والغرب وموقف الإسلام من الحوار مع الآخرين بشكل عام ؟

فقال : إن الإسلام دين يقوم على الجدال مع الآخرين أو بتعبير العصر الحاضر الحوار مع الآخرين .. لأن الآية صريحة : ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وفي موضوع آخر يقول تعالى : ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ .

ويوضح أنه في خط الدعوة الذي رسمه الله تعالى لنبيه ﷺ ، يقول الحق : ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما أنزل ا لله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . ا لله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم ا لله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ . فنحن ابتداء نرى أن التعددية في العقائد والمذاهب من طبيعة البشر: ﴿لي عملي ولكم عملكم﴾ و ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ .. فنحن لا نزعم أننا نريد الانفراد بالعقيدة الدينية في العالم ولا التشريع الإسلامي في الدنيا ، وإنما الأمر كما قال تعالى : ﴿من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ولكن نحب أن يكون هناك جو ودي فيه تلاق صريح نعرف في إطاره الآخرين ، وهم يعرفوننا.. بمعني أن يكون التعارف هو الأساس بين المسلمين والأطراف الأخري ، فلا نخدع أحداً عما عندنا ولا يخدعنا أحد عما عنده .

حوار إسلامي – إسلامي

** تعلم فضيلتكم أن هناك دعوات للحوار فيما بين الأديان وبين الحضارات في مقابل دعوات الصدام والتحرش.. فهل تري أن مثل هذه الحوارات ينبغي أن يسبقها حوار إسلامي – إسلامي ؟

لاشك أن على المسلمين أن يتعارفوا على العقائد المقطوع بها ، وعلي الأمور التي لا خلاف فيها ، بحيث يتم الاتفاق عليها منعاً للخلافات غير المبررة فيما بين المسلمين ، فعلى سبيل المثال لا أقبل أن أحد المسلمين يعرف الإسلام على مذهب واحد مثل مذهب ابن حنبل ، ويقول : لا يوجد غير هذا الإسلام ! فهذا القول لا يتفق مع الحقيقة ؛ لأن هناك أحنافا ومالكية وشافعية وإباضية وشيعة.. وكلها مذاهب إسلامية .

ولذلك لا يقبل في الدعوة إلى الإسلام عرض الفروع الفقهية ، لإنها تختلف من مذهب إلى آخر ، ومن حق المسلم أن يختار أي رأي من آراء المذاهب الإسلامية .

** وبعيداً عن الخلافات السياسية ، هل هناك إمكانية لتجاوز الخلافات المذهبية .

– نعم ، فالخلافات المذهبية ليست فريضة على الأمة ، والخلاف المذهبي لا يؤثر على صحة العقيدة.. فمثلاً لو أن مسلماً قرأ الفاتحة وراء الإمام ، وآخر لم يقرأها ، فكلاهما مسلم ، وكلاهما سليم العقيدة .

** في رأيكم : ما هي أولويات الحوار بين الإسلام والحضارات الأخرى قال الشيخ الغزالي : نحن أصحاب عقيدة نقول : إن ا لله حق ، ولا نكره أحداً على أن يؤمن با لله وإنما نقول له : اعلم أننا نؤمن با لله الواحد جل جلاله ، فإذا كنت كافراً فعليك كفرك ، ولكن عاملنا على هذا الأساس ، ولا تحاول الإساءة إلينا ؛ لأنا مؤمنون ، فمن أساء إلينا رددنا عن أنفسنا ، وهذا حقنا.. ولاشك أن هناك خلافاً واسع المدي في العقيدة بيننا وبين أهل الكتاب الآخرين .

هذا من ناحية العقيدة... أما من ناحية العمل ، فلنا منهاج يتناول تربية الفرد وإصلاح المجتمع وتنظيم الدولة ؛ ولذلك عندنا تعاليم في هذه الشعب الثلاث نعرفها وندافع عنها .

أهل الكتاب أقرب إلينا

** أقصد أن هناك أرضية مشتركة بين الأديان ، كالإيمان با لله واليوم الآخر... لأي مدي يمكن أن تسمح هذه الأرضية بالتعاون بين أتباع الأديان السماوية لمواجهة القضايا التي تؤرق البشرية اليوم ، مثل تلوث البيئة وتفكك الأسرة ؟

– نحن نرى أن أهل الكتاب أقرب إلينا بداهة ممن ينكرون الألوهية ؛ ولذلك فإنه يمكن في الإسلام أن تقوم الأسرة على رجل مسلم وامرأة يهودية أو نصرانية ، ولكن يمنع ديننا زواج المسلمة من كتابي ؛ لأننا نحن المسلمين نؤمن بكل الأنبياء ، وبالتالي فإن الزوج المسلم لا يمكن أن يجرح زوجته أو يحتقر ديانتها ؛ لأن موسي وعيسي نبيان عندنا ، أما أهل الكتاب فلا يؤمنون بمحمد كرسول لله ، ومن ثم فإن الكتابي غير المسلم قد يؤذي زوجته في دينها ، ولا تقوم زوجية بين زوج يحتقر ديانة زوجته .

وعموماً نحن مكلفون بأن نتعاون على البر والتقوي حيث يقول تعالي: ﴿وتعاونوا على

البر والتقوي ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ فهذه الآية تقصد التعاون مع غير المسلمين ، كما أن الإنسان في نظر الإسلام لابد أن ينظر إلى الآخرين على أنهم أخوة له في الإنسانية مصداقاً لقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند ا لله أتقاكم﴾... والرسول ﷺ عندما بعث رسولاً إلى إمبراطور الروم يدعوه إلى الإسلام ، قال له : إنني أدعوك إلى الإسلام ، فإذا رفضت فاعرف أنا مسلمون ، أسلم تسلم ، يؤتك ا لله أجرك مرتين ، فإن رفضت فعليك تبعة الشعب الذي تحكمه ، وا لله تعالى يقول : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا ا لله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون ا لله فإن تولوا فتولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ وتعني هذه الآيات أننا على الدين الذي ندعو إليه ، وأنتم أحرار أن تتبعوه أو لا تتبعوه ، ويتأكد ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ ...

ولا شك ان هناك مجالات عديدة للتعاون فيما بين أتباع الأديان السماوية لمواجهة هذه القضايا التي تهدد البشرية ...

فهرس الموضوعات

